

فالح محمد فالح

معاً على الطريق ..

محمد والمسيح

« الأنبياء إخوة ... »

« أمهاتهم شتى »

« ودينهم واحد . »

اسعار كتاب اليوم في الخارج

الجمهورية العربية السورية	١ دينار
المغرب	٢٥ درهم
لبنان	١٢٠٠ ليرة
الأردن	١٠٠٠ فلس
العراق	٧٠٠٠ فلس
الكويت	٧٥٠ فلس
السعودية	١٠ ريال
السودان	١٥٠٠ قرش
تونس	٢٠ دينار
الجزائر	١٧٥٠ سنتيم
سوريا	٥٠ ل س
الحبشة	٦٠٠ سنت
البحرين	١٠٠٠ فلس
سلطنة عمان	١٠٠٠ بيعة
غزة	١٥٠ سنت
ج البصرة	٢٥ ريال
اموليسيا	٨٠ بنى
السنغال	٦٠ فرنك
الامارات	١٠ درهم
قطر	١٠ ريال
احلقرا	١,٧٥ بنى
فرنسا	١٠ فرنك
المانيا	١٠ مارك
إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
هولندا	٥ فلورين
باكستان	٣٥ ليرة
سويسرا	٤ فرنك
اليونان	١٠٠ دراخمة
المنسما	٤٠ شلن
الدنمارك	١٥ كرون
السويد	١٥ فلورين
الهند	٣٥٠ روبية
كندا أمريكا	٣٠٠ سنت
البرازيل	٤٠٠ كرويزو
بولندا	٣٥٠ سنتا
نورس	٤٠٠ سنت
استراليا	٤٠٠ سنت

كتاب اليوم

● العدد ٣٢٨ : ●

أسسه

مصطفى امين وعلى امين

رئيس مجلس الادارة :

إبراهيم سمعده

المشرف على التحرير

● جمال الفيضانى ●

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ١٦ جنيها مصريا

البريد الجوي

دول اتحاد البريد العربى

والافريقى ١٥ دولارا امريكا او ما يعادله

باقى دول العالم واوروبا والامريكيتين

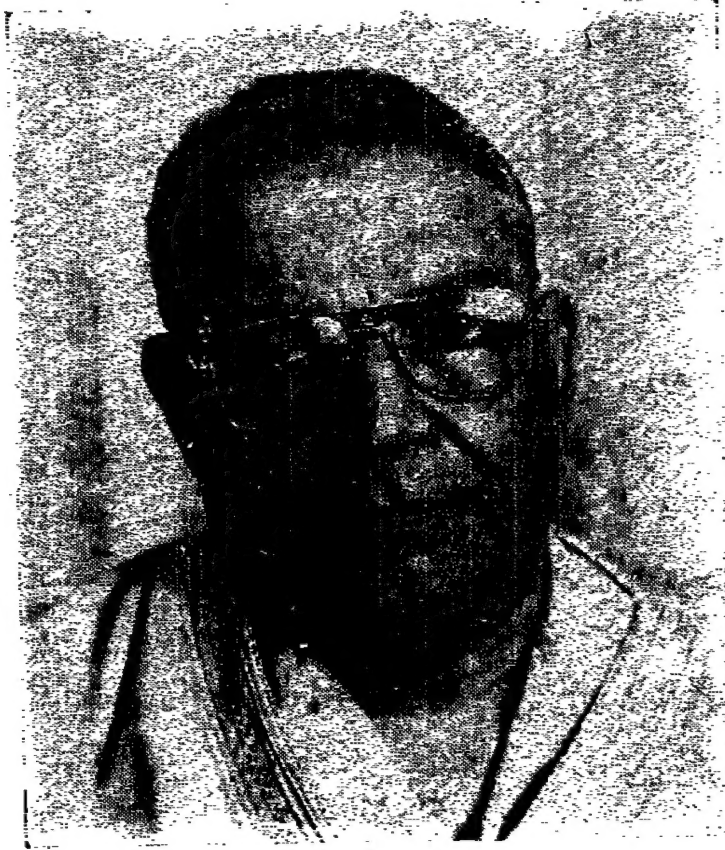
واسيا واستراليا ٢٠ دولارا امريكا او ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ (١) ش الصحافة

القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

غلاف : غفت



بَيْنَ يَدَيَّ هَذِهِ الطَّبْعَةُ مِنَ الْكِتَابِ ..

كلما دعتني دار « أخبار اليوم » لإعادة نشر بعض مؤلفاتي في « كتاب اليوم » ، سارعتُ إلى هواها .

لا رغبة في مزيد من الشهرة ، ولا في مزيد من الثروة ..
ولكن لأن لدار « أخبار اليوم » عندي صنيعاً لا يُنسى .. فهي أول
دار صحفية كبرى نشرت بي كؤلف وكاتب .. ووقفت مع أول
مؤلفاتي - « من هنا .. نبداً » موقف الدائدين عن الحرية ،
والأحرار .

ولن انسى الحديث الصحفى الودود الذى اجراه معى الا
والصديق السيد المستشار « عبد الحميد يونس » ايام كان محرر
فى صحيفة « اخبار اليوم » ، والذى كان اول إشهار للكتاب وللكتاب



ولقد اعد « كتاب اليوم » نشر بعض مؤلفاتى ، كما اعدنا
كتاب : « معاً على الطريق » مرتين وهذه هى الثالثة .
وانى بهذا لسعيد : إذ يُتيح « كتاب اليوم » للقارئ العربى
والمصرى بخاصة ، فرصة « دهاقاً » و « وسيعاً » بنشره الغزير
وإعلانه الوفير .. وبالثمن الوديع والمستطاع الذى يقدم به الكتـ
ـ اى كتاب - لقرائه وطمائنه .. فشكراً لأخبار اليوم .. وشكراً لكتـ
اليوم .. وبين يدي القراء .. وامام العقل ، والرشد ، والضمير
أعيدُ - مع كتاب اليوم - إضاءة إحدى شموع العقل ، والرشد
والضمير .. !!!



ولانعرف كالانبياء والمرسلين من ادفاوا الحياة بالموده
وَحَمَلُوا الْإِخَاءَ بِالصَّبَاءِ ، وارتفعوا بالصحة فى الله إلى اعـ
المستويات ، وابتعد الغيات ، واسمى « الأفاق » .

كما لانعرف مثل « ابن عبد الله » انساناً ضَمِنَ الحياة ،
بعبيره .. وَاَتَرَعَهَا رِيًّا مِنْ نَبْعِهِ ، وكوثره ، ونميره .. !
والإنسان ، والحياة لدى سيدنا الرسول ﷺ وسيدنا المسيح
هما إنجيل الرسالة وقُرْآنُهَا .. !!

من اجل ذلك لن نَرَوَا في هذا الكتاب تاريخا للرسول ،
ولا للمسيح .. بل بحثا عن الإنسان وعن الحياة في تعاليمهما
الرشيده ومواقفهما المجيدة مع الإنسان ، ومع الحياة !!
وحين وَجَدْتُني اكتب عن الرسول ﷺ والمسيح معًا ، أَلْفَيْتُني في
نفس اللحظة ، ولنفس السبب ، اكتب عن الإنسان والحياة ..
ذلك أَنِّي اعرف تماما - لماذا جاء « محمد » ؟؟ ولماذا جاء
« يسوع » ؟؟



والآن - والبشرية تعيش في جيل الظلمات .. والناس في كل واد
قد فسدت ذِمَّتُهُمْ ، وَتَسَعَّرَتْ نفوسهم ، وَخَصِرَتْ صدورهم ..
وتغشاهم الريب من عدل الله وقصاصه - اضْحَوْا في أَمْسِ الحاجة
إلى الإصغاء لكلمات الرسول والمسيح .

وفي أشد الحاجة إلى السير « معًا » على نفس الطريق اللأحب
القويم والمستقيم الذي سار عليه « معًا » الصادقان الأمينان
الخالدان .. ففي هذا - لاقبله ولا يَغْدَهُ - ينقذ الإنسان يومه
التعس .. وتجد الحياة مستقبلها المُرْتَجَى ..

● وعلى الذين يأكل قوئهم ضَعِيفُهُمْ ، وياتمرون بالحق ليخنقوه
ويُزْهَقوه .. ويعقدون الاجتماعات والمؤتمرات والمؤامرات ،
ليلبسوا الظلم ثياب الشرعية ، ويحولوا السرقات الى قوانين ،
وقرارات ..!

- على كل دولة تمشي فوق أشلاء الضحايا خطاها .
- وعلى كل حكومة وسلطة تسوم الناس بظفروها ..
- على كل جماعة او طائفة تتخذ العنف والقتل وسيلة للدعوة ،
ويَبْغُونَهَا عوجا ، ويتخذون من تدينهم مسجدا ضراباً !!
- على كل فرد يسرق .. يبخس .. يظلم .. يخنون .. يكتب ..
يفتنق .. يبيع في اغلى الاسواق ، ويشترى في ارخصها ..
- على هؤلاء جميعا ولولئك ان يقتزعوا ما في قلوبهم من مرض ،
وينكروا انهم إلى ربهم راجعون .

● ولتعلم جميعا أن الإنسانية كُلُّها أُسْرَتُنَا .والعالم كله قريُّنَا ..

وأن مَسْئُولِيَّتُنَا تجاه الاثنين - كما هي تجاه أنفسنا - ماثلة في دَعَم الحب الذى لا يعرف الكراهية .. والسلام الذى لا يعرف القلق .. والعدل الذى لا يعرف البغى .. والخلاص الذى لا يعرف التهلكة .. والباقيات الصالحات فى الفكر ، والإرادة ، والسلوك .
فلهذا جاء الحياة « محمدُها » و « يسوعُها » .. وعلى هذا الطريق سارا .

فالصلاة والسلام عليهما من ربنا العلى الأعلى ..
وسلام على عباده الذين اصطفى ..

خالد محمد خالد

الإهداء

إلى الذين يعملون في مثابرة ، ومَحَبَّة
من أجل الإنسان ..
ومن أجل الحياة ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا ما أريده تماماً ..

آن أقول للذين يؤمنون بالمسيح ، وللذين يؤمنون
بمحمد .

برهان إيمانكم إن كنتم صادقين ، أن تهبوا اليوم جميعاً
لحماية الإنسان .. وحماية الحياة ..!!
وليس هذا الكتاب تاريخاً للمسيح ، ولا تاريخاً
للرسول .. فتاريخهما قد بُسِطَ بسطاً لا يشجع على
التكرار ..

وإنما هو تبيان لموقفهما من الإنسان ، ومن الحياة ..
أو بتعبير أكثر سداداً .. موقفهما « مع » الإنسان ..
و « مع » الحياة ..



لقد أخذني حنينٌ واعٍ إلى الكتابة عن الرسول ، وعن
المسيح .. وفي ذات الوقت . كان يناديني الواجب الذي
كرّستُ له ، أو أريد - دوماً - أن أكرس له حياتي .. وهو
الاسهام في حماية الإنسان ، والحياة ، من الكذب .. ومن
العجز .. ومن الخوف ...

وفي اللحظة التي يعطى فيها وجدانُ الكاتب إشارة
البدء ، وجدْتُني أكتب هذا الموضوع ، تحت هذا
العنوان .. !

ولم أسأل نفسي ، كيف تمّ هذا اللقاء السعيد بين
رغبتى فى أن أكتب عن محمد . وأخيه ، ورغبتى فى
الكتابة عن الإنسان ، والحياة .. !
فأنا أكاد أعرف - تماماً - لماذا جاء محمد .. ولماذا جاء
المسيح ..

وإنه فوق أرض فلسطين ، شهد التاريخ يوماً ، إنساناً
شامخ النفس ، مستقيم الضمير ، بلغ الإنسان فى تقديره ،
الغاية التى جعلته ينبعث نفسه بـ « ابن الإنسان » ..
وابن الإنسان هذا ، ذو العبير الإلهى . تتركنا كلماته ،
ويتركنا سلوكه .. ندرك إدراكاً وثيقاً ، الغرض العظيم
الذى كابد تحقيقه ، ألا وهو : إنهاض الإنسان ، وإزهار
الحياة .

ومن بعده بستمائة عام .. تأخذ الأرض زينتها لتستقبل
إنساناً آخر . ما يكاد يُسأل عن أفضل الأعمال وأبقاها ،
حتى يجيب : بذل السلام للعالم .. وإن تعيشوا - عباد
الله - إخواناً . !!

ويغار على الإنسان .. حتى إن فؤاده الذكى ، ليكاد
يتفطر أسى على موبقاته .. ويتفجر أملاً فى مستقبله ،
وثقة فى قدراته .
أيها الإنسان ..

لماذا تسجد للأصنام ؟؟ ولو كان ثمّة من يُسجد له غير
الله .. لكنت وحدك ذلك المعبود .. !

ولماذا تَذَلُّ للسَّادة ، والأَعْلَى .. وانت هنا ، وفي هذه
الأرض ، خليفة الله ..!

ويا أيها الناس ..

لماذا تعيشون طبقات .. وقد خلقكم الله سَوَاسِيَةً
كَاسْنَانِ الْمُشْطِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَابْنِ الْبَيْضَاءِ عَلَى ابْنِ
السُّودَاءِ فَضْلٌ إِلَّا بِالْعَمَلِ وَالتَّقْوَى ..

ويحب الحياة حُبَّ عاشِقٍ عَظِيمٍ .. فيستقبلها عند صُبحِ
النَّهَارِ ، ومَمْسَاهِ .. وفي نَاشِئَةِ اللَّيْلِ ، وأَخْرَاهِ .. ويعانقها
فِي الزَّرْعِ الطَّالِعِ وَفِي الْمَطَرِ الْهَاطِلِ ..



وبعد ، فعلى الصفحات المقبلة ، سنلتقى بفيض من
اللَّفَتَاتِ الذَّكِيَّةِ ، والتَّوْجِيهَاتِ السَّيِّدَةِ الَّتِي نَحْتُ عَنْ
الْإِنْسَانِ كَثِيراً مِنْ مَثْبُطَاتِهِ . وسنبصر في ضياء اللامسات
الرفيعة الهادية ، جميع الجلال الذي أراده للإنسان
وللحياة ، محمد ، والمسيح ..

ومن سلوكهما هذا ، وتوجيهاتهما تلك ، سيأخذ ولاء
المؤمنين بالإنسان وبالحياة ، زاداً باقياً .
وحسبنا هذا ، حين نذكرهما في مقام التَّأْرِيخِ
والتمجيد .. وفي مقام القدوة والتَّأْسَى .



خالد

مراجع

- ١ - القرآن الكريم
 - ٢ - الكتاب المقدس
 - ٣ - تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول
 - ٤ - ابن الإنسان - اميل لودفيج
 - ٥ - قصة الحضارة - ديورانت
-

■ الفصل الأول ■

سُقْرَاطُ يَقْرِعُ الْأَجْرَاسَ

كانا نبتا مُستسراً في مشيئة الله ، لم يُعرف
بعد .. ولا تنبأ بقدومهما أحد ..
وكانت الحياة ماضية على نهجها ،
وبين الحين والحين ، تقدم للناس نماذج
سديدة من البشر ، يأخذ ذووها مكان
الرواد والقدوة ، أمام الصفوف الزاحفة
من الخلق ، وتضربهم الحياة مثلاً لسعيها
الحثيث في سبيل التفوق ، والكمال .

وعلى حين بغتة ، ومن بيت متواضع يقيم داخل
جدرانه رجل فقير يحترف نحت الحجارة ، وصنع
التمائيل .. فتحت الحياة باباً ضيقاً ، ليخرج منه إلى
الدنيا إنسان جاحظ العينين أقطس الأنف ، قد زهدت
قسمات وجهه في الوسامة ، فأزاورت عنها ، وتلفعت
بخشونة مستأنسة .. وترقب الناس في لامبالاة ، شفثيه
الغليظتين لينظروا ما وراءهما ، إن كان وراءهما شيء .
واقرب الرجل في خطوات وثيدة ثابتة ، ونظرات
حصيفة طيبة . وتحركت شفثاه الغليظتان في اناة ،
وتحولت ابتسامات الناظرين إليه ، إلى قهقهات عالية .
— ياله من ساذج .. لماذا لايفتح فمه ويريحنا ؟!
وواصل تقدمه ، خطوة ، وفي الجموع سر غامض
يدعوها لفسح له الطريق ، حتى إذا شقها صفين
طويلين ، وأشرف على وجودها ، بادء الوجوه المنتظرة
بسؤال :

— لماذا لا تبحثون عن الخير ؟؟

— لأننا نعرفه ، ياسقراط .

— إذن ، فلماذا ما دمتم تعرفونه ، لاتفعلونه .. ؟؟

— ليس يكفي أن نكون خبراء في حذقه ياسقراط . ؟؟

— كلا ! ليس الخبير في الخير من يعرفه ، بل من

يملكه .. !!

ثم إنى أشك في مجرد خبرتكم به ، ومعرفتكم له .. فهل

تعرفونه حقاً .. ؟؟

— أجل ، أجل . نعرفه كما نعرف أنفسنا .
— إذن ، فأنتم تعرفون الغرض الحقيقي لحياتكم ؟..
— نعم .. أن نعيش ، يا سقراط .
— لكن البهائم تعيش ..
— نعيش عيشة صالحة ، ياسقراط ..
وصاح سقراط وسط لجة من الحبور :
حسن هذا .. حسن كثيراً .. وإذن ، تعالوا نعرف ما هي
المعيشة الصالحة .. فعندئذ - فيما أظن - سنكون قادرين
على أن نعرف ، ما هو الخير .
ثم اخذه ما يشبه الرُعْواء ، فحنى رأسه قليلاً ، وأسبل
جفنيه ، وبعد حين عاد إلى وضعه الأول ، ليقول لهم :
« إنها الإشارة الإلهية تعاودنى .. إنها
تأمرنى أن أتعاون معكم على معرفة
الحق ، لأنه لاسبيل للعمل به قبل
معرفته » ..

ماذا كان هذا الرجل سقراط .. ؟؟
وما علاقته بحديث عن محمد ، والمسيح .. ؟؟
أما علاقته بهذا الحديث ، فَجِدْ وثيقة ، وغما قريب
نتبينها .

وأما هو فأبو الفلسفة ، الذى علّم الناس أن يبحثوا ،
ويفكروا - والذى لايزال الفكر الإنسانى يحيا فى ضياء
باهر من عقله ، ومن عقول تلامذته .. !!

ولكن ، اليس عجباً ان ابا الفلسفة هذا ، الذى زلزل
سكينة العقول الهاجعة بسؤاله الدائيين : كيف ..؟
ولماذا ..؟ والذى اطلق عقله الممحص الجواب ، يفضُّ
مغاليق الأسرار ، ويناقش المسلمات ...
اليس عجباً ان يصغى لصوت آخر ، له طبيعة غير
طبيعة العقل ، ذلكم هو صوت الوحي .. او ما اسماء هو :
« الإشارة الإلهية » ..؟!

إن هذه اولى علاقات سقراط بحديثنا ، وليست
آخرها .. وإن فى حياته معالم كثيرة جدية بان نتملأها
ونشاهدها ، فلنعش لحظات فى صحبة هذه الحياة ..
لقد ازدهرت « اثينا » برجلها المضيء ، وتحولت بذكائه
الثاقب ، وروحه الحى ، إلى حديقة زاخرة بثمار المعرفة
وقطوفها الدانيات .

وأناء الليل ، واطراف النهار ، اخذت شوارعها ،
وانديتها تشهد عقلاً فذاً يعبرها دواماً ويغشاها . كأنساً
امامه لغو المشائين ، وسفسطتهم ، وهاتفاً باسمى ما فى
الإنسان كى يستيقظ ويفيق .

وإنه ليناقش الناس فى كل شىء ، ويدير الحوار فى
غير تهييب ، حول الآلهة ، والفضيلة ، والخير ، والشر ،
والجمال .. ثم لا يفتأ يُذكر باننا نحمل داخل ذواتنا شيئاً ،
هو ائمن ممتلكاتنا .. شيئاً عظيماً وقوياً ينتظر منا ان
نعرفه ونجيد معرفته : ذلك الشىء ، هو انفسنا ..

إننا لسنا هملاً . ولسنا نَفُضَ الدهر ، ولَا نَبْتَاجِ
المصادقات ، بل نحن أبناء مشيئة كبرى اصطنعتنا
لغرض كبير .. ونقطة البدء فى مسيرنا الطويل هى معرفة
أنفسنا ..

ومضى ، يلقي العقل الإنسانى ، ويهدى القلب ، حتى
جاء اليوم الذى شق فيه على الأرض أن تتحمل وطأته
الجليلة .. وتقدم بعض الشريرين كي يضعوا الختام
اللائق لحياة باهرة ، يراد لها من بارئها أن تكون مثالا
يُحتذى ، وعزاء يلتمس ، ومشعلاً يهدى إلى خير ما فى
الحياة من فضائل باقية : الصدق .. والبذل ، والمثابرة .
ويجتمع قضاة أثينا ليحكموا الفيلسوف بتهمة
الهجوم على الآلهة ، وإفساد الشباب .
وساق الاتهام كل ما استطاع حشده من فنون الأفك
وصنوفه .

وتقدم الإنسان الصادق ، الباذل ، المثابر ، وانفجرت
شفاته الخليظتان فى غير ببطء هذه المرة .. كان صاحبهما
يعانى شوقاً إلى مصيره الذى أسماه النفس الموت ،
واسماه هو الانتقال ، أو السفر .

وفى هذه اللحظات أكثر من سواها ، وجد سقراط
حقيقته وعرفها . فاراد - قبل أن يمضى - أن يلخص كل
دوره ومهمته . واراد - قبل أن يمضى - أن ينفخ فى هذا
الدور من روحه الخليق بالخلود ليبقى دوره حياً من
بعده . يمشى فى الدروب مثلما كان يمشى .. ويغشى

الأندية التي كان يغشاها . ويتحدث إلى الناس الذين طالما تحدث إليهم . ويلقى نفس الأسئلة .. ويؤدى ذات الرسالة التي كان صاحبه يؤديها حياً . هناك تقدم فى ثقة أزعت خصومه . وقال :
— « يا قضاة أثينا .. »

« كم كان سلوكى سيئاً ، لو أننى عصيت الله فيما أعتقد أنه يأمرنى به . فنكصت عن أداء رسالة الفلسفة ، وتوقفت عن دراسة نفسى ، ودراسة الناس ، وفررت مما كلفنى به خشية الموت .. وأنا الذى حين أمرنى القواد فى « بوتيديا » ، و « دليوم » أن ألزم موضعى لزمته ، وواجهت الخطر والموت .. »

« أيها الأثينيون :

« إنى أمجدكم وأحبكم . ولكن لأنى أطيع الله أكثر مما أطيعكم ، فلن أدع الفلسفة مادمت حياً . سأواصل أداء رسالتى . سأدنو من كل من يصادفنى فى الطريق وأهيب به قائلاً :

ألا تخجل يا صاح من انكبابك على
طلب الجاه والثروة ، وانصرافك عن
الحق والحكمة .. وعن كل ما يسمو
بروحك ..

« إن من يحارب مخلصاً في سبيل
الحق ، لن يمتد به الأجل إلى حين ،
ومن أجل هذا ، فأنا لا أخاف
الموت .. أجل إني لا أخافه ،
ولا أعرف طعمه . ولعله شيء جميل .
غير أنني على يقين من أن هجران
واجبي ، شيء قبيح .. ولذا ، فحين
أخير بين الموت الذي يحتمل أن يكون
جميلاً ، وترك الواجب الذي هو من
غير شك قبيح ، فإني لا أتردد في اختيار
الأول فوراً .

« بنى أثينا ..

« منذ طفولتي ، يلازمي وحي ..
هو عبارة عن صوت يطوف بي ،
فينهاني عن أداء بعض ما أكون قد

اعتزمت أدائه . . وإن جاز أن أسوق
لكم تشبيهاً مضحكاً ، لقلت إنى ضرب
من الذباب الشيط ، أرسله الله لهذه
الامة التى هى بمثابة جواد ثقيل
الحركة . ولا بد له فى حياته من
حافز . .

« أنا ذلك الحافز . . ولقد وجدتم
منى ناقداً منبهاً ، يثابر على فحص
آرائكم ، ويحاول إقناعكم عن حق ،
بأنكم تجهلون بالفعل ، ما تتوهمون
عرفانه . .

« وإن الخير الأعظم لكم ، لهو أن
تتركونى أو أصِلُ رسالتى . . أما إذا أردتم
تبرئتى على أن أترك البحث عن الخير ،
وعن الحق ، فسيكون جوابى : أنا
شاكز لكم أيها الأثينيون . . ولكنى أؤثر
طاعة الله الذى أعتقد أنه ألقى على
كاهلى هذا العبء الجليل . »



وأخيراً ، يُحكم على سقراط بالموت .. وتنتهي له فرصة
الفرار والنجاة . وهنا ، مشهد آخر لابد من وقفة تجاهه ..
مشهد نقر من تلامذته ، يجلسون إليه داخل سجنه ،
ويخبرونه في جذل ، أنهم أعطوا السجنان رشوة وافق
بعدها على تهريبه . وأنهم هياؤا له أسباب السفر إلى
« تسالى » حيث يعيش هناك مع رسالته الكبرى .
وكأنما حسبوا أنهم يزفون إليه بشرى ..! وما كادوا
يفرغون من حديثهم ، حتى مضى على طريقته يفند رأيهم
فى أناته ، كأنه معلم فى مدرسة . وقته متسع ، وفرصته
مواتية .. !

وليس محكوماً عليه بالإعدام ، سيعطى بعد حين قريب
كأس السم ليتجرعه ، ويسيفه ..!!

— « .. ولكن لماذا أهرب -

ياأقريطون - من الموت ؟؟

طبعاً ، لأظفر بالحياة ..

حسن هذا .. وإذن فلنبداً بأن

نعرف ، ما الحياة .. ؟ »

ثم ينتال حديثه الواصل العتب ليخبرهم أن مجرد
الحياة ، أمر لا يعنى الرجل العاقل .. وإنما تهمة فقط ،
الحياة التى تلتزم الصواب .. فهل الهروب صواب ؟؟

— « .. ثم كيف أستطيع
- يا أقريطون - إذا ارتكبت رذيلة
الجبين ، أن أتحدث عن فضيلة
الشجاعة » .. ؟ !

ويقتنع تلامذته . بل يخلطون ..
وحين يسألونه ، على أى نمط يحب أن يُدفن ؟
يجيبهم :

« على أى نمط تشاءون . إنكم
ستدفنون الجسد وحده .
أما الروح فذاهبة إلى مكان يبعث فيها
السرور .

هناك بين المباركين .. !
لن أمكث بعد مماتى » ...

وفى الميقات المعلوم . يُجاء له بكأس صغيرة ، تحمل
فى ذَوْبِهَا ، منيته . فيأخذها بيد ثابتة . ويدفعها إلى
فمه .. ثم يتمهل قليلاً ريثما يدعو « اللهم اجعلها رحلة
مباركة سعيدة » .

ويتجرع السم .

ويموت سقراط .

أو على حد تعبيره هو : يموت جسد سقراط .. !

لماذا بدأنا موضوعنا بهذه البداية الطيبة
ومرة أخرى .. ما علاقة سقراط بحديث عن محمد .
والمسيح ؟

إن الذين تفتحت بصائرهم على قسّمات هذه الحياة
التي عرضناها في إيجاز شديد ، لن يجدوا أنفسهم في
حاجة إلى سؤال كهذا .

● فسقراط فيلسوف لانبى . وهو يعلن أنه لن يذر
الفلسفة ومحاورة العاكفين على أساطير الأولين مادام فيه
نفس يتردد .

● وهو لايسأل الناس على تعليمهم أجراً ، ويرفض كل
مثوبة مادية تقدم إليه .

● وهو كفيلسوف ، يهّمه أن يعرف .. وأن يجمع معارفه
بنفسه ، وبجهد العقل المتحرر ..

● ثم إنه كان يحمل عقلاً شامخاً وشاهقاً لايتلقى ، وإنما
يناقش .. ولا يقلد ، لكنه يخلق .

● وهو ضد الأحكام الجاهزة ، والآراء المسبقة .

ولايرضى للناس أن يقولوا - ولو للصواب ذاته - سمعنا

وأطعنا .. بل يجب عليهم أن يقفوا .. وينظروا ..

ويسمعوا .. حتى إذا تبين لهم أنه الحق أخذوه وعانقوه .

● وهو لم يقل للناس : « اعرفوا ربكم » بل قال لهم ،

وفي إلحاح دائم ذكى : « اعرفوا أنفسكم » .

سقراط ، إذن ، رجل عقل يستعمل عقله في أوسع

نطاق .. ويدعو الناس لاستعمال عقولهم . وإنه ليحترم كل

ماللعقل من حق فى المناقشة ، والمعارضة . بل وفى الشك .. ومع هذا ..

● فهو يصغى كثيراً لصوت آخر غير صوت العقل . هذا الذى أسماه « الإشارة الإلهية » أو « الإشارة المقدسة » ، أى أن الفيلسوف الذى جعل العقل مصدر تفكيره .. قد جعل الوحي أو الإلهام الضاغط موضع احترامه وتلقيته .

● وهو أيضاً ، يفسر الحياة تفسيراً دينياً ، فليست دنيانا هذه هى المنتهى .. بل واحة فى الطريق . وليست نهايته ..

ويفسر الموت بمثل ذلك ، فهو عنده دفن للجسد وحده ، أما الروح قلها الخلود فى عالم يسر الصالحين . ● وهو يحسُّ للموتى قيامة وبعثاً .. ينهضون من قبورهم ، ليستأنفوا رحلتهم وحياتهم .

الم يقل لأقريطون : « لن امكث بعد مماتى » ؟! ● وهو قبل هذا ، يؤمن بالوَهة طيبة ، وربوبية قادرة ، تدعو النفس إلى معرفة الحق ، وفعل الخير . وهكذا ، يتبدى لنا «سقراط» بذاراً جديداً مترعاً بالحياة ، تزرعه السماء فى الأرض ، ليؤتى أشهى وأبقى ثمارها .

ويقف الفيلسوف ، هادياً يقرع أجراس الحياة العظيمة ، وسط بشرية غافية ، كى تلقى سمعها ووعياها ، إلى الرنين الصادق الذى اهلت مع هذا الرجل عصوره وأزمانه .

ولسوف يظل العالم ثَملاً - فى غير غيبوبة - بعذوبة
ذلك اللحن السقراطى إلى ماشاء الله .

ولكن ، بعد خمسمائة عام من موت العازف العظيم
وسفره ، سيفد إلى الحياة هادٍ جليل ، ومبدع فذ ، يمشى
الهوينا فى دروب فلسطين ، وسهولها .

ثم بعد ستمائة عام أخرى .. يزور الدنيا .. هادٍ آخر جَدِّ
عظيم .. يعبر شعاب مكة .. ويصعد فى جبالها متأملاً
وضارِعاً .. حتى إذ وجد اليقين الذى يبحث عنه .. وحتى
إذا قال له الوحي « قم فأنذر » .. نهض فى الناس نذيراً
وبشيراً ..

ولكن إنسان أورشليم .. وإنسان مكة .. يختلفان عن
إنسان أثينا . فالأخير ، يلبس رداء الفلسفة ، ومحمد
والمسيح يلبسان رداء الرسالة .

وهنا ، وبعد الحديث القريب الذى سقناه ، نلتقى
بالحكمة التى نبحث عنها ، والتى من أجلها وقفنا هذه
الوقفة مع سقراط .

فالفيلسوف الذى ترك فى الفكر الإنسانى كله طابعه
الأصيل الفريد ، والذى لا يزال مكانه من فلاسفة عالمنا
ومفكريهم ، مكان الأستاذ ، والمعلم .. كان يؤمن بالغيب .
يؤمن بالله .. وباستئناف الحياة بعد الموت .. وبوحي
يتلقاه المصطفون الأخيار عن الروح الأكبر المشع فى هذه
الأكوان العظيمة .

* * *

صحيح أنه حارب الآلهة . ولكنه لم يحارب الإيمان
الذكي . والآلهة الذين حاربهم هم أولئك المتربعون فوق
جبل « أولمب » يتعاركون ، ويتبادلون كل مايتبادلوه صغار
الناس من أحقاد ، ومؤامرات ، ومكايد .. !
شهر « سقراط » بهذا النوع من الآلهة ، وبهذا الطراز
من الإيمان . واحتفظ بإيمان ذكي بالوهة طيبة عظيمة .
وفى أى العصور مارس الفيلسوف الكبير المتمرد
إيمانه ذاك .. »

فى أعظم عصور العقل السالفة ، معرُفة وإشراقاً .
العصر الذى استطاع العقل الإنسانى خلاله - ومن غير أن
تكون معه مختبرات وأجهزة - أن يحسَّ حركة الأرض .
وكرويتها . ويستشرف داخل الذرات التى تبدو ضئيلة
تافهة . شموساً هائلة وطاقات مذهلة .

وإذن ، فعندما يجىء بعد رحيل سقراط بزمان يطول
أو يقصر من يدعو الناس للإيمان بالغيب ، فإن واجبهم أن
يقفوا .. وينظروا . ويسمعوا
أجل ، لا أقل يومئذ ، من أن يسألوا أنفسهم .
لماذا لا يكون هذا حقاً .

ألم يحدثنا بمثله من قبل . رجل خارق الذكاء ، صادق
الخلق ، كبير الإيمان بالعقل ، وبالمنطق . شديد الولع
بالحوار . وبالشك ، اسمه : سقراط ؟
أجل . لماذا لا يكون حقاً ؟

أو على الأقل ، لماذا لانصفى إلى ما يقولون ؟

صحيح أن سقراطاً ، حدثنا بأشياء ، اكتشفنا فيما بعد
خطأها .. بيد أنها كانت من تلك التفصيلات التي تشبه
الافتراضات التي يتوسل بها العلماء لاكتشاف نظرياتهم
حتى إذا برزت النظرية كحقيقة حية لم يعد لتلك
الافتراضات قيمة ، ولم تؤثر ، وهبتها ، في قيمة النظرية
وصدقها . على أن جميع القيم التي والاها سقراط ، وأمن
بها وببشر .. كالحق ، والخير ، والجمال .. لاتزال ، وستظل
خالدة ، صادقة ، شامخة ، لايزيدها العلم إلا ألقاً وقوة .
لَمْ لا يكون الإيمان كذلك ، سيما والـ م لم يستطع أن
إلى يقين بنقيضه ..

عد .. ففي سقراط ، التقى العقل ، والوحي .
سقراط : بَشَّرَت الفلسفة بالدين .



■ الفصل الثانی ■

الهداية ترسل سفائنها

أكان سقراط وحده يرفع لواء الخير
والمعرفة ويقرع الأجراس ؟
كلا .. ففي أقطار شتى من الأرض ،
كانت الهداية ترسل سفائنها ... وفي الأفق
العالي البعيد ، كانت الشرع تتعاقب ،
وفي عباب الحياة الإنسانية ، كانت السفن
تمضي ماخرة ، هادرة ، تحمل للناس
رسالات الهدى ، وفلسفات الخير .
والصلاح .

فَقَبْلَ « سقراط » بمئات كثيرة من السفين ؛ كانت هناك
فى مصر القديمة ، وفى آشور ، وفى بابل ، محاولات مُثابرةً
لاستجلاء الرُّشد والخير .

وكان « أخناتون » فى مصر القديمة يعلن أن الإله
واحد .. ويقاوم تعدد الآلهة وعبادة الأوثان . ويناجى إلهه
الواحد - أتون - بقوله :

(أنت جميل ، وعظيم ، متألّى ،
ومُشرق فوق كل أرض . وأشعتك
تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع
مخلوقاتك) .

وكان الفكر المصرى القديم يملأ أرضه وبلاده هتافاً
بقيم الحق والخير ، داعياً للعدل ، والاستقامة ،
والمساواة ، والرحمة ، ومُبشراً بالخلود فى الدار الآخرة .
وكان ينادى الناس باسم الإله ، فيقول :

« لقد صنعتُ الرياح الأربع ، لكى
يتنفس منها كل إنسان كزميله .

« لقد صنعتُ مياه الفيضان
العظيمة ، لكى يكون للفقير فيها حق
كالعظيم ..

« لقد صنعتُ كل إنسان مثل غيره من

الناس .. »

وكان يقول لهم :
(إن الصدق جميل ، وقيمته خالدة)



(لا تتكلمن مع إنسان كذباً ، فذلك
مايمقته الله ..)
(ولا تَفْصِلَنَّ قلبك عن لسانك ،
حتى تكون كل طُرُقك ناجحة) .



وقبل سقراط بثلاثمائة عام ، وتحت سفوح الهملايا في
شمال البنغال ، كان فتى وسيم الطلعة ، رِيَّان الشباب ،
يرفل في كل ماتحفل به الدنيا من مناعم ، ومطاعم ،
ومباهج ، ومسرات ... وذات يوم .. وهو يمتطي صهوة
جواده ، ويزاول نزهته اليومية ، أقحم القدر على طريقه
بعض نماذج من البشر ، ينطوى أصحابها على أسَى مُمِضٍّ
وفاجع .. !

ولكأنما كان هذا المشهد نداء الغيب لـ « جوتاما »
أو « بوذا » كما سيدعى فيما بعد .

ففي أمسية ذلك اليوم ، أنفذ في هدوء وعزم ، ما أسرَّه
في نفسه ضحى .. وفي بهجة الليل ، انساب كالأنفاس
الوادعة من فراشه وقصره وديناه البانخة ، وخرج ومعه
خادمه ، حتى إذا بلغا شاطئ النهر ، قطع « بوذا »

ذوائبه .. وتضا عنه ثيابه المترفة ، وما يتحلى به من لؤلؤ
وذهب وأعطائها جميعاً خادمه ، وأمره بالعودة ، بينما
اتخذ سبيله إلى مناسك العابدين ، شمال جبال
« الفنديا » .

وهناك شق على نفسه ، وكلفها من العبادة ما يطيق ،
وما لا يطيق ، وأسلمها لصيام مرير ، وزهادة بالغة .
بيد أنه لم يلبث أن اتهم نفسه بقتل نفسه .. ومن ثم ،
فقد شرع يعتدل في نسكه ، وفي إخبائه .

وذات يوم .. رن في روعه نفس الصوت .. الإشارة
الإلهية .. أو الوحي .. أو الإلهام .. سموه ما شئتم ..
المهم أنه نداء يحس أصحابه أنه قادم من فوق .. وراء
ما يحسون وما يبصرون .

وأصغى « بوذا » ثم أصغى ، وأصغى .
وأخيراً ، عاد يبيت في الناس ' حكمته ورؤاه .
فماذا كانت هذه الحكمة ؟

هي ذى .. ولا تزيد :

— « أيها الناس ، انبذوا الأنانية » .

إن « بوذا » يهتف بالإيثار وخدمة الآخرين ، وهو
لا يعتبر نفسه مسئولاً عن أن يعرف كثيراً عن سر الإله ..
بل هو مسئول عن أن يعرف كل شيء عن بؤس
الإنسان !!!

وهو يدعو الناس ، لينبذوا أطماعهم ، وأنانيتهم ، كي
يجدوا « النرفانا » في انتظارهم .

والنرفانا ، عند بوذا هى حالة السمو والصفاء التى يجدها ويبلغها الذين يغادرون أنفسهم سعياً وراء الحكمة والحق ، والذين يتفوقون على انانيتهم ويبدلون من ذوات أنفسهم فى الخير العام .

— « إنكم تجعلون من ذواتكم سجوناً ضيقة مظلمة قاتلة ، حين تعكفون على أنفسكم وحدها ، وتعيشون لأنفسكم وحدها .

وإنى إذ أدعوكم إلى « النرفانا » لأدعوكم فى نفس اللحظة ، إلى أن تحطموا عنكم أغلالكم - وتغادروا سجونكم التى تحتويكم داخل ظلماتها .

عاونوا الآخرين ، وابسطوا إليهم قلوبكم بالمودعة ، وأيديكم بالإيثار وبالرحمة .

بمثل هذا ، مضى بوذا يبشر ، ويدعو ، متوسلاً بالمعرفة ، وبالأمل مبشراً المصغين إليه ببلوغ ذرى عالمهم المنشود .. عالم النرفانا .



وفى نفس الزمان .. كان هناك فى الصين رائد جليل
يقول :

« حياتى هى صلاتى » .

كم هى فائنة وقيمة ، هذه العبارة .. وإنها لتدلنا من
فورها على موضوع حياة قائلها ، ودعوته .
إنه « كنفشيوس » .. حصر جهده فى تجديد حياة
الناس ، وضبط سلوكهم وفق ما يختاره لهم من عادات ،
وأعراف ، وتقاليد .

ولقد هجر وظيفته ، إلى « دار الحكمة » التى أنشأها
فى ولاية « لو » .

وظل ينضج فكره ، ويجمع نفسه ، ويحاول اكتشاف
دوره ، حتى أفضى إلى ما يريد .

وهناك خرج الى الناس بتعاليم ، كل غرضها ، خلق
الرجل « الجنتلمان » .

الرجل الأنيق النظيف ، فى تصرفاته ، وفى حركاته ..
فى طريقة أكله ، وفى طريقة سيره ، ونومه ، وفى طريقة
حديثه .. وفى حياته كلها .

وحين يزخر الوطن بهذا الطراز من أبنائه ، يصير قادرا
على صبغ نفسه بالصبغة الجيدة التى يريدها له
« كنفشيوس » .

وحين تنجح التجربة داخل الصين ، تصدر إلى
خارجها .. وهكذا يقر « كنفشيوس » عيناً ويهدأ بالاً ، تجاه

فوضى السلوك والمنظم التى تؤرقه كثيراً ، والتى قال عنها
ذات مرة :

« إن هذه الفوضى التى تعم الدنيا ، هى
الشيء الذى يحتاج إلى جهودى » .

كذلك كان هناك انبياء الشرق الأدنى .. يجوبون القفار
والنجوع ، هاتفين بالصلاة ، وبالبر ، وبالتضحية ..
منقّضين بغضبهم الصاعق على الاستغلال واحتكار
الثروات ..

« .. من أجل أنكم تدوسون
المسكين .. وتأخذون منه هدية
قمح .. بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة
ولا تسكنون فيها . وغرستم كروماً شهية
ولا تشربون منها » .

« ويل للمستريحين فى صهيون ..
أنتم المضطجعون على أسرة من
العاج .. والتمددون على الفرش ،
والآكلون خرافاً من الغنم ، وعجولاً من
وسط الصيرة .. الهادرون مع صوت
الرّباب ، الشاربون من كئوس
الخمير .. »

« كرهت أعيادكم ، حتى تدعوا
الحق يجرى كال مياه ، والبر يجرى
كنهر دائم .. ؟ »

ولا يكاد هذا الهدير يهدأ ويكف ، حتى يجلجل فى
الأفق ، وبين الروابي ، وفوق السفوح ، نذير جديد يهتف
به « إشعياء » :

« .. مالكم تسحقون شعبى ،
وتطحنون وجوه البائسين .. ؟
« ويل للذين يَصِلُونَ بيتاً بيت ..
ويقرنون حقلاً بحقل ، حتى لم يبق
موضع ، فصرتم تسكنون وحدكم فى
شطر الأرض .. !

« ويل للذين يقضون أقضية
الباطل ، وللكتبة الذين يسجلون
زوراً ، ليصدوا الضعفاء عن الحكم ،
ويسلبوا حق بائسى شعبى .. لتكون
الأراامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام .. !
« يقول الرب :

« اغتسلوا .. تنقوا .. كفوا عن
فعل الشر .. تعلّموا فعل الخير ،

اطلبوا الحق ، أنصفوا ، اقضوا
لليتيم ، حَامُوا عن الأرملة .
ثم يلقي نبوءة وأملاً فيقول .

« ها هي ذى العذارى ، تحبل وتلد ،
وتعطى ابناً ، يحل فيه روح الرب . .
روح الحكمة والفهم . . روح المشورة
والقوة . . روح المعرفة ومخافة
الرب . .

« يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم
بالإنصاف لبائسى الأرض .

« يسكن الذئب مع الخروف ،
ويربض مع الماعز ، يطبعون سيوفهم
سِكِّكاً ، ~~ورماحهم~~ مناجل . .

« لا ترفع أُمَّة على أُمَّة سيفاً ،
ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » . . !
أى إنسان كان إشعياء . . ؟

وما هذه المودة الدافئة العميقة التى
يكنها للعالم وللسلام . . ؟ !

* * *

هل نطمع نحن اليوم ، بل وبعد
عشرات السنين ومئاتها ، فى أكثر من
هذا . . ؟

أن تتحول السيوف إلى عُملة .
وتتحول الرماح إلى مناجل . .
وبعبارة واحدة ، تتحول ميزانيات
الحروب و سلع الموت إلى تعمير ،
وانعاش ، ورخاء وسلام دائم مقيم .
هكذا أَلقت الحياة سمعها لرواد من
طراز لا نألفه نحن اليوم فى أجيالنا . .
ولعل هذا مما يباعد أحياناً ، ويفصل
بيننا وبينهم بخطوط وهمية مُخادعة .
لكن حين نستأنى ، ونخلص فى
محاولتنا الفهم والمعرفة ، نجد الدور
الجليل الذى قاموا به ينادينا ، وينادى
فينا كل ما نملك من قدرة على الاحترام
والتبجيل .

إننا إذ نصغى اليوم لرجال من أمثال
هيجل ، واسبينوزا ، وابن رشد ،

والفارابي ، وسانتا يانا ، وابن سينا ،
وشكسبير ، والمعري ، وكوبرنيكس ،
وجاليليو ، ونيوتن . . فإنما نفعل ذلك
إكباراً لما أسدوه لعقولنا ، ولوجداناتنا
من علم ومن نور . .

وهذا جميل . . ولكن ليس جميلاً
أن يفتتنا روح العصر الذي يجنح عن
الغيب إلى الشهادة ، وعن النبوءة إلى
التجربة . ليس غير !!

ليس جميلاً أن يصرفنا روح العصر
هذا ، عن أن نبذل احتراماً صادقاً
ونصغي في تدبر وتعلم لأولئك الرواد
الأوائل الذين أخذوا على كواهلهم
المستبسلة ، تطوير الحياة الإنسانية عن
طريق تطوير العقل الإنساني وبث رؤى
الخير والشجاعة والصلاح في الضمير
البشري .

ولقد يكون بعضهم سلك شعاباً يشق
علينا اليوم أن نسير فيها ، لكنهم في

الإطار العام لدعواتهم ومناهجهم ، لم
يكونوا إلا رواداً أفذاذاً ، ورسلاً
صادقين كباراً .

ومن جُماع هتافتهم الرشيدة المنبعثة
من أوطانهم المتباعدة .. خُططت
تُخوم وطن واحد للفضيلة وللحق ،
وأيضاً للعالم الواحد الذى سينتهى حتماً
إلى الفضيلة وإلى الحق فوق صعيد
ذلك الوطن الواحد الكبير الظاهر .
لقد كانوا - أثابهم الله عنا خيراً - ذوى
فضل كبير فى جمع البشرية بذاتها وفى
لقائها بواجباتها التى أفضت ممارستها
إلى ماظفرت به فيما بعد من تفوق
عقلى ، ومن تفوق أخلاقى .

وإنا لنسأل :

أهؤلاء الذين لم يؤخذ على سلوكهم
شبهة .. ولم تحم حول عقولهم
ظنة ..

الذين عاشوا وتآلموا ، وكابدوا
الصعاب . وواجهوا الخطر ، من أجل
الناس ، لا من أجل دنيا يصيبونها ،
ولا منفعة ينالونها .. !!

والذين خرجوا من ديارهم ، ومن
أنفسهم ، ومن أموالهم .. وتبتّلوا
لدعواتهم ، وأخلصوا أصدق الإخلاص
لواجباتهم .. !!

هل كانوا .. وهل كان كفاحهم
العظيم .. وأيامهم العاملة .. ورؤاهم
المضيئة ..

كل ذلك .. أكان هذراً .. أكان
لغواً ، وباطلاً .. ؟؟
أبدأ .. أبدأ .. أبدأ ..

وإنه لمفروض علينا من أنفسنا
السوية ، أن نحترم كفاحهم النبيل
الجليل ، ونصغي للحكمة الحلوة
النافعة التي لاتزال تشع بها أمّات
تعاليمهم .. والتي انطلقت ذات يوم

لأول مرة من هناك .. من أثينا ،
والصين والهند ، وأرض الشام .. ومن
قبل .. من هنا .. من مصر القديمة
حيث صيغت على نسق عال وثيق ،
فلسفات التوحيد ، والبعث ،
والخلود ، وحيث رسمت للأخلاق ،
وللسلوك مناهج قويمة ، بقدر ما هي
مستقيمة .



والآن ، اقربوا .
في خشوع ، وتقوى .
إن الباب الكبير يُفتح . ليخرج منه
إلينا .. إلى البشر جميعاً . أخوان
حميدان .. جاءا يُلَخِّصان دعوة الخير
كلها . ويعطيانها في إطارها الدينى .
تعبيرها النهائى ..
انظروا :
ها هما - فى ضياء باهر - قادمان .
عيسى .. ومحمد .

ابن الإنسان ..
ورحمة الله للعالمين !



أما « عيسى » فسيلخص لنا كل
فلسفات المحبة ، ودياناتها .
ورؤاها .. ثم يمنحنا إياها فى تركيز
حاسم .. فى دعوة ميسرة .. فى
سلوك وديع .

وأما « محمد » فسينفض عن الإنسان
آخر أغلال التبعية ، والخضوع ،
ويعلن فى شمول واع حقيقة التوحيد .
وهكذا . تتلقى البشرية منهما ، آخر
دروس إعدادها ، وتتسلم وثيقة
رُشدها ، لتمضى بعد هذا فى طريق
الحياة شجاعة مُبصرة .

تجربة الوحي فى قلبها ، ونور العقل
فى رأسها .

والله من قبل .. ومن بعد .. يعينها
ويهديها .



■ الفصل الثالث ■

مَعَا

عَلَى طَرِيقِ الرَّبِّ

في حجر أم بارة ، بدأ المسيح ، كما بدأ
محمد ، أولى ساعات الحياة .. وفي شباب
متأمل ، وَرِعَ ، طالع كل منهما رؤى
مستقبله ، واستجلى غوامض سُبحاته ..

● وكما تلقى « المسيح » بشراه الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وعينه عليه لا تَريم .

« يجيء من هو أقوى منى » !

● كذلك ، تلقى « محمد » بشراه الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وهو مُصنغ :

« هذا الناموس الذى أنزله الله على

. موسى » !

● وفى قرى ظالمة لنفسها ، صاخبة شهواتها ، سار كل منهما عفا نقيا .

● وأمام مكابد اليهودية المتأمرة الغادرة ، وقف الرسولان يتحديان رجسها ، ويكابدان بأسها . !

● وأريد للمسيح أن تنتهى حياته الطاهرة على صورة تشبع الأحقاد الملعونة الملتائة ، لخراف إسرائيل الضالة . !

وأريد للرسول ، أن تنتهى حياته أيضا بسبب من غدر اليهودية المتأمرة ، فدست امرأة يهودية السم فى طعامه !
● وقال « المسيح » حين أحاط به لؤم الكهنة وكيد الكائدين :

« اغفر لهم يا أبتاه ، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون » .

● وقال « الرسول » ودمه يتفجر تحت قسوة الحجارة التى يُقذف بها من كل جانب :

« اللهم اغفر لقومى فانهم
لا يعلمون » .

أكانت هذه المشابهة عفو الصدقة ، أم هى ثمرة شىء
يشبه القانون العام يُصنع على شاكلته هذا الطراز الجليل
من الهداة .. ؟!

إننا نريد أن نقرب من محمد ، ومن المسيح أخيه ،
ونريد أن نبصر الرؤى الصحيحة التى رايا بها مستقبل
الانسان ، ومستقبل الحياة . فانهما فى هذا لنظيران مثلما
هما نظيران فى شدة ولائهما للإنسان وللحياة .

والآن ، علينا أن نعرف ، ماذا كانت البيئة التى تنتظر
كلا منهما ، وتتجمله المجيء .. عسى هذا أن يهدينا الى
حاجة عصرنا لهما ، ولروح الخير الذى تعبنا فى بثه
وإذاعته .



فلسطين ، أرض تحمل شعباً متعدد القسّمات ، يعانى
اهلها حقداً كثيراً على الغزاة الذين يسومونهم سوء
العذاب .. وهم لهذا ، يهربون من الواقع الممض إلى رؤى
غدٍ مرقوب ، حيث « يجيء ملك اليهود ومخلصهم » !!
إن جنود روما ، تشوى الأبخار بسياط كاوية ،
والخوذات اللامعة المتكبرة تقذف بالرعب فى أفئدة
القطيع .. والضرائب الفادحة المبهظة تجبى من ذوى
الخصاصة والكادحين ، لكى ترفع الى السيد الماجد
« قيصر » المتربع على عرشه الباذخ فى « روما » !!

والجائئون بين يدي هذا الواقع الأليم ، أبناء شعب
تشرّد في الأرض وفي القرون ، وعانى من التمرق والمحق ،
مما جعله يتلمس في شوق بالغ قدوم من يخلصه .
كذلك عانى من تعدد الأسياد ، وتعدد الغزاة الذين
انقَضُوا ظهره ، ممّا ما جعله يهفو إلى عقيدة التوحيد ،
ويهتف بها .

ترى ، إن جاءه مخلصه يؤمن به ، أم يعدُّ له صليباً
كبيراً .. ؟!

وإن دُعي إلى عبادة الله الأحد ، يطيع ؟ ! أم يُشرك به
الذهب ، والمال .. ؟!

لم تكن تلك أحاسيس اليهود القابعين في بعض
فلسطين وحدهم .. بل والمبذورين في بقاع كثيرة من
الأرض .

هناك في اسبانيا ، وفي افريقيا ، وفي جوانب البحر
الابيض المتوسط وفي جنوب روسيا ، وبعض بلاد
الامبراطورية الرومانية .

غير أن المقيمين منهم في « اورشليم » وما حولها كانوا
أكثر معاناة للألم وأكثر تعلقاً بالأمل . وأيضاً أكثر اضطراباً
وبلبلة وإيقاعاً .

كان « المجتمع » هناك - إن جاز هذا التعبير - نهباً
لتقاليد خالطها الكثير من العفن ، والنفاق ، والنفعية ..
مما جعل الأنبياء يكثرون وتكاثرت صيحاتهم المنذرة ، ترّجّم
جو السماء .

كان اليهود الفرّيسيون يقفون حراسا عنيديّن على طقوس شكلية خالية من الروح ، متجاهلين أبواب الشريعة ، وصميمها .

فالسبت - مثلاً - مُقدّسة فيه الراحة ، بل البطالة ، حتى لقد ترك أبائهم ذات يوم « اورشليم ، تسقط في يد أحد الغزاة السّلوقيين لأنه هاجمها يوم السبت ، وهم يوم السبت لا يعملون ، حتى حين يكون هذا العمل دفاعاً واجباً عن حياتهم وانفسهم .. !!

وهم أيضاً - الفرّيسيون - يهتمون أعظم الاهتمام بغسل الأيدي قبل الطعام ، لا من أجل النظافة ، بل لمجرد أنه طقس ديني .. ثم لا يهتمون بمآتي هذا الطعام ، حلالاً كان او حراماً !!

وطهارة القلوب لا تنال من اهتمامهم معشار ما تناله طهارة الأيدي ، وعما قليل سنبصر خبث صدورهم وطواياهم وهم يحاربون المسيح ويفتنّون في الكيد له . واليهود هناك ، يمنحون انفسهم من الامتياز ما يجعلهم فوق البشر ، ويرون انفسهم « شعب الله المختار » ! ويزعمون أن الله قد وعد اباهم « إبراهيم » ملكاً عظيماً ، يحكمون من خلاله جميع الأرض وجميع من عليها !! ثم هم يعيشون في دائرة مغلقة ، منطوية ، متزمتة . وهم في اورشليم يُشكلون « مصرفاً » ، جشعاً ، يُؤلّه المال ، ويحتكر الثروة ، ويضرب الفقراء والمعوزين بسياط الاستغلال ، والربا ، والبغى . لا يعرفون عن المقدسات إلا انها السبيل لحظوظ أوفى من الكشب الحرام . وإنهم ليبلغون في

غرورهم الصفيق الحد الذى يقولون عنده « إن الله فقير ،
ونحن أغنياء » !!

وهم جماعة تفكر بمخاوفها ، وبحرصها ، وبأنانيتها ،
فيجىء تفكيرها من الانحراف ، والقسوة ، بحيث يبدو
أصحابه وكأنهم ليسوا على الإطلاق بشراً .

لقد قتلوا أنبياءهم ، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى
أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا ، وفريقاً يقتلون ...!!

وإنهم لأساتذة فى فن الجريمة .. وفى أعناقهم وأيديهم
يُقع كبيرة من دم « زكريا » ومن دم « يحيى » ومن دماء
زاكية لأنبياء وشهداء كثيرين !

وهم - وان تظاهروا بالغيرة على الشريعة - لا يضعون
شيئاً من حقائقها موضع التنفيذ .

والذى يعينهم من الدين كله ، شىء واحد هو مُلكهم
المنتظر حيث تجد نزواتهم الجامحة فى السيطرة وفى
الاقتناء فرصة سعيدة .

وإذا كانوا متغوفين بمجىء « المخلص » ، فليس لكى
يخلصهم من خطاياهم ، ويهدى الى الله نفوسهم
وسلوكلهم . وإنما ليضاعف الثروة فى جيوبهم !!

من أجل هذا ، رَحَّبوا بالمسيح بعض الوقت فور
ظهوره ، فلما تبين لهم أنه لن يكون « السمسار » الذى
يسلمهم الصفقة المنتظرة ، والملك المرقوب هَبُّوا لعداوته
وتواصَّوا على حربه !

وأخيراً ، فإن معظم القيم السامية - إن لم يكن

جميعها - قد اختفى من هذه البيئة وكان للكهان فضل كبير في هذا ..

وفى وحل الجشع ، وإلى حضيض الجريمة اخلد الناس الذين كانوا يومئذ هناك .

ولو أن قوة تتمتع بما تشاء من ذكاء ومقدرة ، أرادت أن تتقدم لإصلاح هذه الجماعة الضالة ، والتي لم تكن رغم مساوئها الكثيرة ، إلا نموذجاً لكثير من سكان العالم أيامئذ ، فماذا كانت صانعة ؟

● تنشئ الجامعات ، وتملؤها بالأساتذة والمربين ، لتلقن في مدرجاتها هذه الخراف الضالة أسلوب الحياة الفاضلة ؟

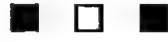
● تتوسل بأجهزة الإذاعة ، والصحافة ، والنشر ، لم يكن شيء من ذلك قد وجد بعد .

● إذن تصبهم في قوالب سحرية ، يدخل أحدهم من أعلاها شريرا فاسداً ، ويهبط من أدناها قديسا طاهراً ؟ ولا هذا ..

لقد اصطنعت السماء يومئذ أنجع الوسائل وأجداها ، فكان المعلمون الصالحون الذين يبينون لهم الخير والشر ، ويميزون الخبيث من الطيب ، ويقودونهم بكلماتهم الحارة الصادقة ، وبسلوكهم الفاضل الباهر الى المحبة والفضيلة ، ويُشكلون المجتمع على صورة تمنحه قابلية التطور الصالح ، والتقدم السديد .

* * *

هذا كان عمل الأنبياء والمرسلين ، قبل أن تخالطه
إضافات الأتباع ، وتحريف المغرضين .
وهذا ما سيحاوله المسيح حين يجيء .



ولكن ، قبل أن نشهد مجيئه ، يحسن أن نلقى نظرة
أخرى على العالم كله ، فليس يكفى أن نعرف ماذا كانت
« أورشليم » قبيل ظهوره ، دون أن نعرف ماذا كانت كذلك ،
وفى نفس الزمان ، طبيعة المرحلة التاريخية للعالم كله .
فالمسيح ، ومثله الرسول ، لم يجيئا ليوقدا شموعهما
فى أورشليم وفى مكة وحدهما ، بل جاءا ليوقدا شموعهما
للعالم كله .

ولقد كانا على وُجدان بهذه الحقيقة
قال المسيح :

« جئت لأخلص العالم » .

وقال الرسول :

« إن الله أرسلنى للناس كافة ..

وأرسلنى رحمة للعالمين » .

ولقد حدث هذا فعلاً ولم تبق دعوتهما داخل القرى
الصغيرة ، بل تفتحت لها أبواب القارات الكبيرة ،
ولا تزال الديانتان ، المسيحية والإسلام ، تغمران الأرض .
وهذا شئ طبيعى فلأفكار قوة على النفاذ والزحف
أكثر مما للجيوش نفسها .. لاسيما تلك الأفكار الصادقة

الكبيرة التى تحمل من أمانى البشر ، وتحقق من احتياجاتهم ما هم إليه مشوقون .

فما الوضع الذى كان يسود العالم يومذاك ؟
كان الشرق الأقصى يمارس فلسفته الخاصة ، وتتطور
النظم فى بلاده تطوراً عنيفاً تارة ، وهادئاً تارة أخرى .
ولكن ظاهرة تثير الانتباه حقاً ، كانت أيامئذ تعلن عن
نفسها فى ذلك الركن الأقصى من الأرض .

ففى الصين التى كانت تعيش وراء سورها البالغ طوله
ألفاً وخمسمائة ميل .. والتى كانت قد وحدت ولاياتها
الكثيرة المتفرقة تحت لواء حكومة مركزية واحدة .
الصين تلك ، كانت تمارس تجربة هائلة بداها
الإمبراطور « وو - دى » ثم أعاد تطبيقها بعد نكسة طارئة
الإمبراطور « وانج مانج » .

وتنظم هذه التجربة : إلغاء الرق وتأميم الأرض
الزراعية تأمياً كاملاً شاملاً ، وتأميم الملح ، والحديد
والمناجم ، وتثبيت الأسعار !

أما فى الشرق الأدنى ، وأوروبا ، فقد كان هناك استعمار
وبيل ، ورقّ بشع !

فالإمبراطورية الرومانية ، على الرغم من محنتها ،
وتمزقاتها الداخلية ، قابضة على أعناق رعاياها ، فى بلاد
غاله ، حيث شمالى إيطاليا ، وجنوبى فرنسا ، وفى
بريطانيا ، وفى النمسا ، والمجر ، ورومانيا ،
ويوغسلافيا ، وبلغاريا .

وفى إسبانيا . وشمال افريقيا ..
وفى مصر . والشام ..
وفى اقطار أخرى من الأرض . سيطرت عليها .
وكان سلوك روما مع الخاضعين لها عجيبا . فهي تصدر
إليهم عبادة قيصر . وتأخذ منهم ارزاقهم ، وما تنتج
بلادهم من ثروة وخير . !!
ولا بأس لدى روما أن تسمح لبعض المقاطعات بإرسال
ممثلين لها فى مجلس الشيوخ الرومانى ، كما حدث حين
سمحت بهذا لبعض من أشرف فرنسا ..
تماما . كما تفعل فرنسا اليوم مع الجزائر إذ تعتبرها
مقاطعة فرنسية نظير التصديق عليها بإعطائها حق التمثيل
فى جمعيتها الوطنية^(١) .. !!
ولم يكن الاستعمار الرومانى ممثلا فى جيوش « روما »
وحدها .. بل كان يؤازر القوة والسلاح ، فريق من
الاحتكاريين بين العتاة .
فقبل ميلاد المسيح بستة وأربعين عاما ، لا غير . كان
للاحتكار الرومانى فى الأندلس وحدها . ثلاثمائة مصرف .
تنزح من إسبانيا ذهبها . وقصديرها . ونحاسها .
وفضتها . وحديدتها .
كما كان الاحتكار الرومانى . يعاونه الاستعمار الممثل
فى الحكومة والجيش ، يسيطر عن طريق قادس على

(١) كتب هذا قبل ان تظهر الجزائر باستغلالها

تجارة المحيط الأطلسي مع غربى أفريقية ، وفرنسا ،
وبريطانيا .

وفى مراحل مختلفة من سيطرة « روما » كان استعمارها
يتسم بقسوة لافحة غليظة .

فمثلا ، كان الرومان يصطادون أهل « كورسكا »
بالكلاب ، ليبيعوهم عبيدا .. !

وكانت الضرائب ، تفرض على الأرض ، وعلى الأملاك ،
وعلى الحيوانات ، وعلى العبيد .. !

صحيح أن الاستعمار الرومانى ، كان ينشد العمران ،
ويقيم المشاريع العظيمة فى كثير من مستعمراته تلك ..
ولكنه كان يفعل هذا ، ليزداد دخله منها .. أى أنه كان
يُسمِن البقرة ، لتدرّ له مزيداً من الحليب .. !

ففى شمالى أفريقيا - مثلاً - أقام السدود العالية
لاختزان الزائد من المياه .. وغرس أشجار الفاكهة
والزيتون ، حتى قيل إن المسافر كان يقطع الطريق من
طرابلس إلى طنجة تحت ظلال أشجار الزيتون .. !!!
ولكن لمن كانت هذه الخيرات تُجبى وتحمل .. ؟؟
لسادة روما وشعبها ..

أما أصحاب البلاد الحقيقيون ، فمجرد فَعَلَة وعبيد .. !
ولقد أراد « أغسطس قيصر » ذات يوم أن يكافئ بعض
ضباطه وجنوده على إخلاصهم له فأقطعهم « قرطاجنة »
كلها .. وعاشوا هناك سادة وأشرافاً .. بينما تحول أهلها
طبقة دنيا من الرقيق ..



كانت فلسطين ، إحدى مستعمرات هذه الامبراطورية ، يقطنها مليونان ونصف مليون من الناس ، يعيش الوثنيون منهم في مدنها الساحلية ، ويتركز اليهود في المدن الداخلية .. ويعانى شعبها . لا سيما اليهود ، نزاعاً عنصرياً ، واضطراباً سياسياً .

فبين أهل يهوذا ، والسامريين . وبين الصّدّوقيين ، والفريسيين ، عداوات دائمة الاستمرار .. ولكن مقتهم لروما يجمع بين قلوبهم المشتتة .

وعلى صفحة هذه البلاد التى سيرفع المسيح فيها صوته بعد قليل ، تنعكس مساوئ الاستعمار الرومانى وسلوكه .

فالاستبداد السياسى ، رجيم ، حتى إنه فى معركة واحدة فى إبان شباب المسيح ، أى قبل جهره بدعوته ، قاد « قارس » حاكم سوريا الرومانى حملة تاديبية على بعض مدن فلسطين ، فهدم مئات البلدان ، وصلب ألفين من سكانها ، وباع ثلاثين ألفاً فى أسواق الرقيق .. !! ومن هنا توهجت آمال كثيرين ، فى مجىء المسيح مُخلّص مَلِك يؤسس مملكة مستقلة ، تدفع ضغط روما وتسلطها ..

والظلم الاقتصادى جاثم يومئذ ، وقبلئذ .. فالضرائب فادحة ، وجَبَاتُها لحساب الرومان لا يرحمون ، وكهنة اليهود ، وتجارهم لا يقلون عن الآخرين جشعاً وبغياً . ومن هنا ، توهجت آمال قوم آخرين فى المسيح يلغى

التجارة ، والملكية الفردية ، ويحقق مساواة كاملة بين
الناس .. !!

كان أصحاب هذا الأمل ، جماعة تسمى « الأسينية »
أو « الآزيون » .

كان أعضاؤها يعملون فى مزرعة جماعية ، غربى البحر
الميت .. ويجمعون محاصيلها ، وكل مكاسبهم فى بيت مال
مشترك .. ومحظور على أى منهم أن يمتلك لنفسه بيتاً ،
أو فراشاً ..

وكانوا يؤمنون بالسلام ، ويطردون من صفوفهم كل من
يصنع ، أو يساهم فى صنع شىء من أدوات الحرب .. !
ولقد حدث لهم - كما يحكى الكاهن يوسفوس - فى
تاريخه ، وكما ينقل عنه ديورانت فى قصة الحضارة - أن
عُذِّبُوا ، وحرِّقُوا ، وقطعت أجسامهم . ليتخلوا عن
عقيدتهم وسلوكهم ، فأبوا ، وجادوا بأرواحهم
مبتهجين .. !!

هذا رسم بيانى للموقف كله ، فى العالم الذى تسود
معظمه الأنانية من جانب ، والمسكنة من جانب آخر ..
وفى الأرض التى سيقدر لها أن تستقبل المسيح القادم .
ترى . ماذا سيصنع به يهودها .. الذين طالما
انتظروه .. ؟!



فى هذه الدنيا التى لمحناها ، شهد « بيت لحم » ذات
صباح نضير مولد طفل .

لم يكن أحد الذين شهدوا ميلاده ، بقادر على استجلاء المستقبل العظيم لهذا الوليد النائم فى مهدٍ مُتناه فى البساطة .

ومع هذا ، فلن يغيب طويلاً شروق هذا المستقبل ،
ولسوف يكبر الطفل ، ويشبّ وتهاجر به أمه خوفاً عليه ،
ثم يعود فيستمع ليوحنا المعمدان ، ويلقّف منه الشرارة
التي ستطلق قواه العارمة من مكائنها ، ويمضى هادراً ،
جيشاً . يحدث الناس فى دعة وحلم ماداموا يصغون إليه
ودعاء مسالمين .

ثم يجلجل فيهم كالنذير - يا أولاد الأفاعي - حين يلمح
فى عيونهم الماكرة نوايا الغدر والكيد .
ولسوف تبدأ المسيحية - فى تقديرنا - من ساعة اللقاء
العظيم بين « يوحنا » ، و « المسيح »^(١) .

فمن المكان الذى شهد ذلك اللقاء خرجت القافلة أول
ما خرجت الى بلاد الناصريين . ثم الى ما حولها ، ثم الى
روما الجاثية فى ابتهاال ضارع ، ثم إلى أقطار شتى فى
الدنيا ، والتاريخ .

فإلى هناك لنبصر مشهد الشروق .



(١) او لعلها تبدأ بـ « اشعياء » وثورته المسالمة من اجل العدالة ، والفضيلة والسلام

نحن الآن ، على ضفاف الأردن .. وهذا الرجل المتبتل ،
الأشعث الأغبر ، الذى يرتدى ثوبا من الشعر ، ويعيش
على عسل النحل ، وعلى الجراد الجاف ، هو « يُوحَنَّا »
أو « يحيى » عليه السلام ..

إنه عابد أوَّاب ، ليس معه من الدنيا شيء .. وإنه
ليدعو الناس الى التوبة ، ويُعمِّدهم بماء النهر كي
يساعدهم على تطهير قلوبهم . وإنَّه أيضا ليُنْدَد فى عنف
شديد بالنفاق .. وبالكهنة الذين « يغسلون أيديهم ،
وقلوبهم ملآة دماً » !!!

ملآة بالشر وبالحق وبالأناثية .. !!

وهو ، وإن يكن فى عزلة تلك ، بعيدا عن الواقع
السيئ الذى تموج به « أورشليم » إلا أنه بهذا الواقع
جِدُّ خبير .

ففى « أورشليم » هذه .. تلقى دروسه ، وعاش من عمره
بعضه ، بين الكهان ، والفريسيين ، والتجار ، وجنود روما
وعملائها ..

وهو شديد الخوف من الله ، ومن عقابه .. وإنه لا ينسى
أن هذه أترقعة سن الأرض ، التى يعيش فوقها ، قد ازدهرت
عليها ذات يوم « سدوم » ثم خسف بها ، وبأهلها ، حتى لم
يبق منها إلا عبرتها القاسية الرهيبة .

وهو يستعيد ذكريات القرون التى كانت لها على اليهود
وطأة شديدة . فيبصر وراء كل ضربة محققهم بها القدر :
تِلْالاً من الخطايا ارتكبوها فأخذت الرجفة صالحهم ،
وطالحهم .

أفيسكت عما يرى من جرائم وسيئات ، أم يصدع بما
فى نفسه من حديث نافع مضى .

لكن « أورشليم » على بعد عشرة أميال منه .
فهل يتركه طغاتها يتكلم حين يأتهم نبأه ، أم يسوقونه
الى نفس المصير الذى طالما ساقوا إليه أنبياء
وقديسين ..

إن طبيعة الانسان ، هى الانسان نفسه . وطبيعة
« يوحنا » بكل ما تحمل من جيشان ، وسكون .. من إقدام
وخشية .. من تطلع وعزلة .. من نُسك وتبتل ؛ وغيره على
الانسان ..

هذه الطبيعة هى يوحنا .. وإنه ليؤثر فى الآخرين بنقل
طبيعته إليهم .

هكذا نحن البشر .. تأثيرنا فى الآخرين ، يعنى أننا
نفذنا إلى طبائعهم بالجزء الأقوى من طبيعتنا .

وقد يكون الذى يتلقى التأثير ، أقوى من المؤثر ذاته ..
مع هذا ، يظل للتأثير نفعه ، وضرورته .. لأنه يكون بمثابة
« إشارة البدء والانطلاق » . ورفع الغطاء عن القوى
الحيثية المنتظرة .

وشىء يشبه هذا ، سوف يحدث بين يوحنا ،
والمسيح .

لم يطل تفكير « يوحنا » فاختر طريقه ، وواجه
مسئوليته . ووسط حشد من الناس وقف يذيع أولى
كلماته :

— « توبوا .. لأنه قد اقترب ملكوت السموات » .. !!
وطار بين البلاد نبأه ، وكثر سعى الوافدة إليه .
وذات يوم ، والمسيح عاكف على شبابه الطاهر ،
يجلوه ، ويحسن تنشئته ورعايته ، التقى بقافلة من
قريته ، أصحابها عائدون من شاطئ الأردن ذاك ..
ويقترب منهم فى شوق ويسألهم :

— هل رأيتموه .. ؟

— نعم ..

— ماذا كان يقول للناس ؟

— سمعناه يقول .

« من له ثوبان فليعط من ليس له ،

ومن له طعام فليفعل هكذا » !!

وتتفتح روح المسيح ، ويتهل وجهه .. ويحس كأنها
كلماته .. كأنها مبادئه .. أو كأنه أولى الناس بتقبلها ،
وحمايتها ، وتحويلها إلى سلوك ونهج .

« من له ثوبان فليعط من ليس

له » ..

ما أكثر ما فيها من عذوبة ، ومن

رحمة ، ومن عدل ..

وما أخراها بالتضحية فى سبيل حمل الناس عليها ،
سيما أولئك الشريرين القابعين فى « أورشليم » المخفين

وراء أريدتهم الفضفاضة ، نفوسا تفوق في اللؤم ، اللؤم
نفسه . وتكاد الجريمة حين تراها تصيح : مرحبا
بوطنى .. !

وعاد يسألهم :

وكيف يستقبل الناس ؟

ويجيبونه :

إنه يفتح قلبه لهم جميعا ، حتى العشارين لا يردهم ،
بل يعمدهم ويعظمهم ، وحتى الجنود ، لقد سألوه عما
يصنعون ليرضوا الرب ، فأجابهم :

« لا تظلموا أحدا : »

« ولا تشؤا بأحد » .

وازدادت روح المسيح إشراقاً
وَوَجْداً ، وأوى الى نفسه يفكر ،
ويتأمل ..

إن الرؤى العظيمة الباسلة التى
يحسها فى أعماقه قد انطلقت صادحة
على ضفاف الأردن ، فلماذا لا يكون
هناك فى استقبالها ؟

ومع أول قافلة ، شدَّ رحاله .

وهناك ، بين الصفوف المصغية إلى

كلمات يوحنا ، أخذ مكانه فى خشوع
وتقوى .

كان يوحنا يقول :

« أنا صوتٌ صَارِحٌ فى البرية .
« قَوْمُوا طريق الرب » .

وشق السكون سؤال وَجَّةَ إليه :
— هل أنت المسيح الذى بُشِّرَ بمجيئه !
ويجلجل صوته بإجابة سريعة حاسمة :
« لست أنا المسيح ..

أنا أعمدكم بماء ، ولكن يأتى من هو
أقوى منى ، من لست أهلاً لأن أحل
سيور حذائه » !!

ثم يفتح عينيه جيداً على الوجوه الباسرة ، وعلى
اللقى الطويلة المتأمرة فى أصداغ الكهنة الذين جاءوا
ليتامروا به ، وإذ يبصر فوقها تحركات أحقاد تتحفز
وسخافات تتنادى ، يبددها بصيحة زاجرة :
— يا أولاد الأفاعي !!

وينبهر المسيح بهذه القوة المتحدية .
وحين ينزل يوحنا إلى الماء ليعمد الطالبين ، يتقدم
المسيح إليه راجياً تعميده ، ويلفه يوحنا بنظرة غريبة ،
ثم يهمس فى سمعه :

« أنا محتاج أن اتعمد منك ، وأنت تأتي إليّ » ؟؟
ويختلج رأس المسيح متسائلا ، وتتلمع أمامه مرة
أخرى وسط هالة من الضوء الدالِ الكاشف ، كلمات
« يوحنا » التي صدح بها منذ قريب :

« يأتي من هو أقوى مني » .

ولكن الحوادث تترى فى مفاجآت عجيبة ، وفى بلبلة
موجعة ..

فجنود « هيرودس » فى خَوْذهم المستكبرة ، وفى
« بطونهم » المنتفخة بالحرام ، يدهمون المكان الآمن
الوديع ، ويعتقلون « يوحنا » ثم يذهبون به .

ويعود المسيح الى « الناصرة » بروح غير الذى
غادرها به .. يعود وداخل إهابه إنسان آخر ، لا تشغله
حرفته التى يكسب منها عيشه ، فـ « ليس بالخبز وحده
يحيا الإنسان » ، وإنما يشغله ذلك الدور الجديد الذى
يحس أنه دُعى لأدائه ..

ونفس الصوت الذى سيسمعه « محمد » بعد ستمائة
عام يرن فى روعه رنين الصدق هاتفا :

« يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ ، قم فأُنْذِر » ..

نفس الصوت ، يرن الآن فى روع المسيح :

« أَنْتِ ابْنَى الْحَبِيبِ الَّذِى بِهِ سُرُورٌ ..

لِلرَّبِّ إِلَهَكَ تَسْجُدُ ، وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ

تَعْبُدُ » ..

ليس هناك ذرّة من ريب فى صدق الحس الذى تلقى به
محمد كلمات ربه .

ولا ذرة من ريب فى صدق الحس الذى تلقى به المسيح
نداء ربه .

فليس فى حياتهما اثر - أى اثر - لتصنع أو ادعاء .
حتى كلمة « ابنى » فى عبارة المسيح لم تزغ عن
مكانها ، فنحن جميعا أبناء الله ، بمعنى أننا خلقه ..
وابوته لنا ، لا تَغْنِي تلك الأبوة الوالدة التى تعرفها
« دفاتر المواليد » ، بل هى أبوة الخالق الأول ، والأعظم .
وعما قريب سنلتقى بالرسول وهو يستعمل نفس
التعبير ، فيقول :

﴿ الخلق عيال الله ﴾ ..

﴿ وأحب الناس إلى الله أنفعهم

لعياله ﴾ .

بل سنسمعه يقول :

﴿ يقول الله عز وجل : لا تسبوا

الدهر ، فأنا الدهر ﴾ .

فهل الله حقا هو الدهر ، بالمفهوم الحرفى لكلمة

الدهر .. ؟ !

لا .. وإنما هو سبحانه ، الدهر .. بمعنى انه القوة

الكبرى المسيطرة والمبثوثة مشيئتها فى الزمان ..

والمكان .. والتي ينبثق من خلال رحمتها ، وقدرتها أسباب الحياة وطاقاتها .

وكذلك وصف الله بالأبوة ، فهو القلب الكبير الذى يسعنا بحنانه وببره .

أجل ؛ جميعاً .. صالحنا ، وفاسدنا ، قويننا ، وضعيفنا .

وفيما وراء هذا ، نلتقى بالمسيح ، ينعت نفسه كثيراً بأنه « ابن الإنسان » .

بيد أن « ابن الإنسان » هذا ، لم يعرف فؤاده الذكى أية تخوم فاصلة بين الأب ، والرب ..

لقد تخطى حدود النسب الأرضى ، وجاوزها جميعاً . حتى أمه ، حين يقال له ذات يوم : إنها بالباب تريدك ، يجيب : من هى أمى ، ومن هم إخوتى .. ؟؟

« إخوتى وأمى هم من يعملون مشيئة الرب » !! هذا هو ابن الإنسان ، الذى نعت الله بأنه أبوه .. والذى قال : « كل غرس لم يخرسه أبى السماوى يُقلع » .

إنه الآن أمام الله ، وجهاً لوجه - إن جاز هذا التعبير - وجميع الأحساب والأنساب ، والأسباب ، ترأور وتختفى ، وتذهب بعيداً ، بعيداً .. بعيداً ..

لأن القبس الإلهى ، المعطى لكل إنسان ، قد نما فى المسيح ، وتفوق وانتشر ، حتى ملأ وجوده كله ، ولم يعد يبصر فى ضيائه الباهر سواه .. حتى أمه التى ولدته ، وحتى إخوته !!..

ارتفعت روابطه بهم إلى مستويات عالية من الواجبات العامة الكبيرة التي تجعل من جميع البشر إخوة له ، ومن جميع الأمهات أمّاً .. ومن وراء هذا كله ، أبوه السماوى .. ربه الذى أرسله ، كما قال هو ليَجبر منكسرى القلوب ، ويطلق الأسارى من القيود !!

لقد أسهبنا قليلاً فى هذه المسألة ، ولم يك هناك بُدّ ، وقد جاءت مناسبتها ، من أن نسهب ونفيض .
والآن نعود إلى حديثنا الأول ..

إلى يوحنا ..

لقد اعتقله جنود روما ، جنود « هيرودوس » إلى حيث لا يستطيع بعد اليوم أن يلتقى بالناس ، ويهدم فى أنفسهم أوثان الطاعة لروما ، وقيصرها ، ولكهنة اورشليم .

اجل .. إلى السجن ، حيث لا يلتقى بعد بالقلوب الضامئة إلى كلمة الله ولا بالنفوس السباخطة على الظلم والكذب .

وخلت ساحة النضال من بطلها المقتحم .. فهل سيطول بها العهد حنى تُوجِش .. ؟؟

كلا ، لقد قال يوحنا قبل أن يمضى : « يجيء من هو اقوى منى » .

فمن كان يجد فى نفسه اليقين بأنه هو ، فليتقدم ..
وكان هناك واحد يملأ اليقين رُوعه ووعيه ..
وكان هو المسيح ..

أَوْقَدَ دَقَتِ السَّاعَةُ ..؟؟

أجل ، يا ابن الإنسان .. فتقدم ..
وفوق مكان عال ، فى بيت لحم ، وقف يبلغ الحافين
حوله أولى كلمات الحق :

﴿ قد كَمُلَ الزمان ﴾ ..
﴿ واقترب ملكوت الله ﴾ ..
﴿ فتوبوا ﴾ ..
﴿ وآمنوا بالبشرى ﴾ ..

ولندعه يتم حديثه العذب القويم ، ريثما نمضى فى
رحلة سريعة إلى مكة لنشهد مجيء أخ له كريم ، ونلتقى
بأولى سمات الزمالة بين محمد والمسيح ..



عَلام يدلُّ هذا الرجل الصالح ، الزاهد ، الأواب ، الهائم
بين الصحارى والجبال ، الضارع إلى الله فى نجوى
دائبة :

أَنْفَى لَكَ اللَّهُمَّ عَانٍ رَاغِمٌ
مَهْمَا تُجَشَّمْنِي فَأُنَى جَاشِمٌ

إنه « زيد بن عمرو بن نُقَيْل » يغمره الإحساس بنبوة
آتية ، ويود لو يكون صاحبها ، يختاره الله لها .. فيحظى
بكل مافى هذا الاختيار من شرف ، ويؤدى كل ما يقتضيه
من حق .

وإنه ليَجُوب الأرض وحيداً ، ملِحاً فى دعائه ، ممعناً فى

رجائه ، مبتهلاً إلى ربه سبحانه ، أن يعطيه إحدى
الحُسْنَيْنِ :

يكون هو النبي المختار ..
أو يجمعه الله به إذا كان الاختيار من حظ سواه ..
كان « زيد » هذا ، كما نعتة المؤرخون ، راجح العقل ،
قوى الخلق ، ذكى الفؤاد ، ثاقب البصيرة .
وهو فى إحساسه العميق بمقدم نبي ، لم يكن منجماً ،
ولا عرّافاً ، بل كان رجلاً مفتوح العينين على واقع البيئة ،
وروح العصر ، فأدرك وجود حاجة تاريخية ملحة ، تنادى
مصلحاً .. منقذاً .. رسولاً ..

وبلغ إحساسه بحتمية هذا المجيء ، حداً عيّن له
ميقات ظهوره .. اليوم .. أو غداً .. ولن يتأخر إلى بعد غد
على الإطلاق . !!!

إن هذا الحسّ الصادق لابن نفيل ، يشكل ويمثل ضرورة
تاريخية كانت تبشر فعلاً بمجىء محمد ..
وهكذا ، وبعد ميلاد المسيح بقرابة « خمسمائة
وسبعين عاماً » جاء فى رحلة عظيمة إلى الحياة ، واحد
من أعظم أبنائها شأنًا ، وأكثرهم برًا ، وأهداهم سبيلاً ..
وكما لمحنا البيئة الخاصة والعامة ، التى كانت حين
.. المسيح . نريد أيضاً أن نلمح البيئة الخاصة
.. التى كانت ، حين جاء محمد عليهما
سلوات الله ، وبركاته ، وسلامه .

● كان العرب مبثوثين فى جزيرة مترامية . يزخر

شمالها ، مثلما يزخر جنوبها بالفضاء الواسع ،
وبالصحراء العارية . وتقوم القبائل بالبحث الدائب عن
لُقمَتها ، وعلى حراسة عاداتها ، وعباداتها .. وتسير بهم
الحياة بطيئة ، كحُطى الأغنام فى مشيها اليأس وراء
عشب تأكله وترعاه .. !

● ولكن هناك قرى كبيرة تتجمع فيها مراكز الحياة
القبَلية .. مثل مكة ، والمدينة ، والطائف ، فى شمال
الجزيرة .

وفى وسط مكة ، التى سينعتها القرآن حين ينزل ، بأم
القرى يقوم بناء متواضع ، لكنه هائل التأثير ، مقدس
المكانة .

إنها الكعبة ..

● وفى الكعبة مزدحم من الأصنام الطارئة ، فما كانت
كذلك فى أيامها الأولى ..
أما اليوم ، فلكل قبيلة ، أو مجموعة من القبائل صنمها
المعبود .

يغدو الناس ، ويروحون . ثم ينتهى تطوافهم دوماً إلى
هذه الأصنام يبتئونها حاجاتهم ، ومخاوفهم ، وآمالهم ..
● فى جنوب الجزيرة ، أو شبه الجزيرة ، يحكم الفرس
الذين ناصروا ملوك جَمِير على الأحباش . ويتخذون من
اليمن قاعدة لحكم سافر تارة ، ومَقَنَع أخرى .. ولسوف
يظل هناك حتى يبطش أتباع الرسول المقبل بامبراطورية
الفرس كلها .

● وفى الشمال ، حيث الحجاز ، يسيطر أشراف القبائل ، ورؤساء العائلات والعشائر ، يصلهم الساحل الغربى بمرافىء البحر الأحمر وتجارته . وينداح الطريق أمام قوافلهم وتجارتهم حتى بلاد الشام ..

● وهذا الشعب الصبور ، شديد التعلق بحريته ، فذُّ الولاء لها . لا يرضخ لأى حكم خارجى . ويؤثر شطَف الصحراء . ولأواءها . لأن صعيدها المترامى ، وآفاقها البعيدة ، وحياتها المنطلقة .. كل هذا ، يغذى فى نفسه الطامحة . حنينها الأبدى إلى مزيد من الحرية والانطلاق . ولكنه . على الرغم من هذا - وإنه لعجيب - يخضع للأصنام خضوعاً مُذلاً . فأمام الحجر الصامت العاجز . يُنيخ كبريائه واعتداده ، ويسلم أمره ومصيره ويبتهل ، ويناجى ، ويرجو ، ويخاف .. !!!

● ثم إنه على الرغم من بداوته ، يمارس حياة أدبية رفيعة .

فالشعراء يملأون فجأجه .. وللشعر ، كما للفنر أعياد ومواسم تشد إليها الرجال . وليس هذا فحسب .. فالإنتاج الأدبى المتفوق يُجَاز ويكافأ ، بأن يرفع إلى أقدس مكان ، فيعلق باستار الكعبة ، حتى ولو كان هذا الإنتاج يصور مغامرات حب ، أو ليلة حمراء ..

وعن طريق القصة المنظومة . كان يورح ليعسد ويعبر عن تجاربه تعبيراً فنياً عجيباً .

● وفى طرق مكة ، كنت تسمع صهيل السادة وثغاء

العبيد .. وتلتقى بالطائفين حول البيت العتيق ،
وبالمخمورين الذين أضناهم طول السهر فى غرف
العاهرات .. وقلما تبصر شعائر إيمان صحيح عاقل .. فإذا
غادرنا مكة إلى العالم ، وجدنا شيئاً قريباً مما كان ، قبيل
ظهور المسيح .

● فى الشرق الأقصى ، تفيق اليابان على صوت
المدنية القادمة إليها من الصين ، وكوريا ، والبوذية ..
● وفى الهند ، تمزقات داخلية ، وحروب أو فتن أهلية
متساوقة ..

● والصين ، مشغولة باسترداد الأقاليم المجاورة التى
خرجت عليها بعد سقوط أسرة هان ، ثم لا تلبث أن
تستقبل عصراً من السلام ، والرخاء جدّ عجيب . !
ومراكبها المترعة بخيراتها ، تمتطى ثبَجَ البحر ،
قاصدة الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندى ،
والخليج الفارسى ..

الثقافة ، والأدب ، والفن فى أزهى عصورها .
ولعلنا - الآن - ندرك سر وصية الرسول التى سيقولها
أو تُعزَى فيما بعد « اطلبوا العلم ، ولو فى الصين » . !
هذا هناك ..

أما هنا ، فكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية ،
والإمبراطورية الفارسية ، تخوضان من أجل المستعمرات
فى الشرق الأدنى ، وفى أوروبا ، حروباً مُفنية . !
فجستنيان يخرق الهدنة ، ويهاجم شمالى أفريقية ،

وإيطاليا .. ويرد أنوشروان التحية بمثلها ، فيجتاح بلاد الشام ، وتسقط في حجره كل ثروات ، وخيرات « أنطاكية » .. !

ثم يعقدان الصلح .. ثم يعودان للحروب .. ولسوف يظل بأسهما بينهما شديداً ، حتى يزحف عليهما بعد وقت قريب ، أتباع رسول كريم فيذيعون نعي الإمبراطوريتين الآفلتين !!!

أما اليوم ، فإنهما في حروبهما المخبولة من أجل السيطرة والسلب ، تبسطان سلطان سلطانهما على الشام ، والعراق ، وسوريا ، ومصر .. وتُسومان الناس خسفاً وضنكاً .

وحين نعود إلى حيث كنا ، إلى الصحراء العارية .. إلى الكهوف والبادية .. إلى دنيا الأصنام ، والأزلام ، والميسر .. سنسمع صوتاً جديداً ، يلقي حديثاً عجيباً .. سنبصر إنساناً جديداً يذرع الوجود في رفق وأناة .. إنه هو الذى كان « زيد بن عمرو بن نفيل » يلح في البحث عنه .. والذى كان الزمان والمكان يتطلبانه ، وينتظران قدومه .

إنه ، محمد .. !!!

« أجود الناس كفاً .. وأجراهم صدراً .. وأصدقهم لهجة .. وأوفاهم ذمة .. وألينهم عريكة .. وأكرمهم عشرة » . إنه قائم بين نفر من الذين يصغون إليه هناك .. فى ذلك المكان البعيد عن أعين الرقباء ، يحدثهم عن الله .

﴿ الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من

خوف ﴾ ؟؟

الجوع ، والخوف .. ؟؟

يالها من بداية جريئة ، وسعيدة !!

ويتحلق حوله حراس القديم ، وعُباد الأصنام ، فيهمس

إليهم :

﴿ يا أيها الكافرون ﴾

﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾

﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾

﴿ لكم دينكم .. وَلِىَ

دين ﴾ .. ؟؟ !!

وهذا أيضاً ، كم هو رائع ..

إنه « تعايش سلمى » يدعو إليه محمد ، أولئك الذين

برزوا مبكرين لعداوته وحربه .

ولكن ، لقد تركنا فى قفرتنا السريعة هذه ، مشهد

الشروق .

فإلى وراء قليلاً ، لنرى الأمل ، وهو يولد .. والرُّشد ،

وهو ينمو .. والرسول ، وهو يتسلم وثيقة الاصطفاء ،

وأمر التبليغ ..

نحن الآن في شِعب من شِعب مكة ومكة المتوقدة
عاكفة على حياتها ..

ويولد طفل يتيم ، تتلقاه ذراعاً أم حانية ، لا تلبث هي
الأخرى أن تغادر دنياها ، تاركة وليدها في السادسة من
عمره غصاً ، وحيداً ..

ويشب الطفل ، شباباً سريعاً نقياً .. وتقع عيناه على
أصنام قومه .

وعلى الناس الحاقين بها ، الجاثين أمامها ، فيأخذه
تفكير ذاهل شديد .

أتكون هذه الحجارة المركومة آلهة حقاً .. ؟ !
ويستأنى طويلاً ، قبل أن يقبل عليها ، أو يعرض عنها ،
ويأوى إلى نفسه مفكراً ، ثم ينتبذ منها مكاناً قصياً ، بعيداً
عن اللجاجة ، والمؤثرات هناك في دار حراء ، حيث
يستجمع قوى إلهامه ، ويصقل كل استعداداته الروحية ،
والعقلية ، ويهيئ بكل القوى أن تخف لنجدته ،
وهدايته ، إن كان ثمة لهذا سبيل .

ثم يعود إلى البيئة .. إلى الأصنام ، والضوضاء ،
والتقاليد والأساطير ، وكل ما يشكل حياة الناس ،
ويطويهم في موجات زحامة .

ويستعرض ذلك جميعه ببصيرة مجلوة ، قد أرففها
طول التعبد ، وصفاء الوحدة ، وإلهام العزلة المفكرة ..
وتقترب حقائق الأشياء من بصيرته ، فيراها أكثر مما يراها
سواه .

ويعود إلى «الغار» في ميقاته المعلوم ، وينثر بين
يدى وعيه ، تجاربه الجديدة . وكلما بزغت له خاطرة ،
لم يتوارَ منها ، ولم يهرب من مسئولية تمحيصها ،
والتفكير فيها

فثقته بنفسه جُذٌ عظيمة .. وحياته ، وسلوكه ،
وعلاقاته الصادقة بالحياة ، تشد زناد الثقة فيه إلى
أقصاه ..

ليس في قريش من لا يدعو «الأمين» ..
وليس فيها من لا يشهد له برجاحة العقل ، وعظمة
النهج ، واستقامة الضمير ..
وهو ينال هذه الثقة بطبيعة مبينة مفتوحة . لا التواء
فيها ، ولا مُخاتلة .

إنه «نسيج وحده» في غير تصنع
● الناس يعكفون على أصنام لهم ..
أما هو ، فشئ في روعه ، يقول له . قف
● الناس ، يلعبون الميسر ، ويستقسمون بالأزلام .
ويظلمون الأرملة ، ويأكلون مال اليتيم ..
أما هو ، فشئ في روعه ، يقول له . ارجع .
● الناس يعيشون بالوراثه والمحاكاة ، شعارهم «إنا
وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» .

أما هو ، فشئ في روعه ، يقول له : فكر .
إذن ، فهو إنسان يحيا داخل هالة عظيمة مضيئة من
انبعاثات ممتازة متفوقة .

ولقد عانى واجبات وجوده على أمثل طريقة ، ومارسها منذ البدء ، فى مستوى عال ، لا يطيقه سوى أولى العزم من الرجال .

ومع الأيام ، تفضج شخصيته ، وتتفتح رؤاه .
وينمو وعيه الداخلى نمواً تضيق به ذاته ، وتحتشد قوى نفسه ، وإلهامه ، وتفكيره وعزيمته ، احتشاداً ، يتعاضم كل تلبث ، وكل آناة ، وكل انتظار .
ويهل عليه ، ما كان يرجو وينتظر .. أذان من الله بالبدء .. ويقين بأنه صاحب الدور ، ورائد المرحلة .. وذات يوم ..

ولنصغ إليه ، يصف ما حدث :

﴿ .. جاءنى الملك فقال : اقرأ ..
قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى ، فغطنى حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ .. فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ .. فقلت : ما أنا بقارىء ! فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان

من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى
علم بالقلم . علم الإنسان ما لم
يعلم ﴿ .

وهكذا ، يلتقى « الرسول » بدوره . ويحمل الأمانة
الكبرى . ويمضى فى حذر أول الأمر .. ثم يجهر بها
ويصدع حين يقول له ربه الذى اختاره واصطفاه
« قاصدُ بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين » .
ولسوف يواجه من الأذى . ومن الكيد . ومن العناد
ما يزيده إصراراً وعزماً .

ولسوف ينتصر فى معركة الإغراء ، انتصاراً نبيلاً ،
تاركاً كلماته الهادية العظيمة ، درساً لا يرتجف ضياؤه .

﴿ والله ياعمّ لو وضعوا الشمس فى
يمينى ، والقمر فى يسارى ما تركتُ
هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلكَ
دونه ﴾ ..

سيدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ..
فإذا أحاطت به العداوات الباغية فى مكة ، هاجر
بدعوته إلى المدينة .

وإذا اضطره أعداء الحياة الجديدة ، الطاهرة ، العادلة
التي يبشر بها إلى القتال ، قاتلهم غير معتد ، ولا مسرف ..
فإذا أظفروه الله بهم أخيراً ، سارع إليهم بالنجدة
وبالآمن :

﴿ اذهبوا فأنتم الطلقاء ﴾ .. !!

وعلى طريق حياته الباهرة ، سترتسم ، إلى الأبد آثار
قَدَمَيَّ رجل .. وإنسان .. ورسول ..

وبعد .. فماذا كان محمد والمسيح يريدان .. ؟
ما الغرض العظيم الذى سارا على طريق الرب ،
ليبلُغاه وليحققاه ..

لقد بَشَّرَا كثيراً بمتوبة الله .. وخَوْفًا كثيراً من عقابه ..
وَأَذَّنَا فى الناس بشعائر ، ومناسك ، وعبادات ..

فهل كان هذا وحسب ، غاية سعيهما .. أم كان أسلوباً
ووسيلة لحمل الناس على إدراك شأو بعيد ، وأمر جليل ؟

لقد قال المسيح : « جئت لأخلص العالم » ..

وقال محمد : « إنما أنا رحمة مُهْدَاة » .

فماذا كانا يعنيان .. ؟

من أى شقاء ، سيخلصنا المسيح .. ؟

ومن أى عناء ، سيرحمنا محمد .. ؟

وفى التحليل النهائى لنهجهما ولمواقفهما الزاخرة

امثابرة .. ماذا سنجد هناك من لُبَاب خالص مُحَضَّ .. ؟؟

وبعبارة واحدة :

ماذا كانت وجهتهما ؟ ..

أما أنا فأقول :

كانت ، إنهاض الإنسان .. وإزهار الحياة ..



■ الفصل الرابع ■

مَعاً مِنْ أَجْلِ الْإِنْسَانِ

الإنسان ..

هذا الاسم ، ذو الرنين الصادق ،
الفاتن ، المُثير ..

هذا الكائن ، الذي اتَّكَمِنَ على أمانات
الحياة وواجباتها ..

هذا المسافر ، الذي لا يضع عصاه عن
كاهله لحظة ، والذي يُؤَلِّى وجهه دوماً
شَطْرَ كمال بعيد .. !

هذا الإنسان ، فى علمه وجهله .. فى ثرائه وفقره .. فى
حريته وأغلاله .. فى تقواه وفجوره .. فى صحته
وسُقمه .. فى آلمه وآمله .. فى عظمته وبُؤسه ..
كيف تراءى لمحمد ، وللمسيح ؟

ما نوع الواجبات التى حملاها تَجَاهه ؟
ما الأغلال التى حطَّماها عنه ؟
ما الانتصارات التى حقَّقاها له ؟

من هذا المَدخل سنمضى ، سائرين وراء ضياء باهر ،
يقودنا نحو ما يُهمنا اليوم معرفته من رسالة عيسى ،
ورسالة محمد ..

ولسوف يكون من حسن حظ الإنسان - فى محنته
القائمة - أن يبصر عناية الله به إلى كل هذا المَدَى الذى
لم يكن يحدسه ، ويخاله ، كما سيكون من سوء حظ أعداء
الإنسان ، أن يظهر للناس حقيقة موقف الرسولين
الكريمين ، من الإنسان ، ومن حقوقه فى هذه الحياة .
قرأتم أن المسيح رفض مُلك اليهود ، كما رفض الإذعان
لإرهاب رؤسائهم ، وطلب إليهم أن يخلّوا بينه وبين
كلمة الله ، يريد أن يقولها .

وقرأتم أن محمداً رفض أن يُعطى الشَّمس فى يمينه ،
والقمر فى يساره ، على أن يترك الأمر الذى من أجله
جاء ..

فما الكلمة التى قالها المسيح ، وحرص أعظم الحرص
على أن يقولها ؟ ..

وما الأمر الذى أثر محمد تبليغه ، على مُلك يحده
الشمس ، والقمر ؟؟ !!

إنهما لم يجيئاً بدعوة مجردة ، بل بدعوة ذات موضوع
حافل عظيم .

فماذا كان الموضوع .. ؟
لقد كان الإنسان ، وكانت الحياة ..
وأول ما يبهرننا فى عنايتهما بالإنسان ، ذلك التردد
المُفْعِن لاسمه ، والحفاوة الصادقة به .
فالمسيح ينعت نفسه بأنه « ابن الإنسان » ويكررها
كثيراً .

﴿ إن - ابن الإنسان - لم يأت ليُهْلِكَ
أنفس الناس ، بل ليُخَلِّص ﴾ ..



﴿ ها نحن صاعدون إلى أورشليم ، و -
ابن الإنسان - يسلم إلى رؤساء
الكهنة ﴾ ..



﴿ لا يذوقون الموت حتى يروا - ابن
الإنسان - آتياً ﴾ ..



﴿ ومن قال كلمة سيئة بن الإنسان :
يغفر له ﴾ .



﴿ لا تعرفون اليوم ولا الساعة :
فيها - ابن الإنسان - ﴾ . .



﴿ إن - ابن الإنسان - يات . كذا :
مكتوب عنه ﴾ . .



﴿ كذلك يكون - ابن الإنسان - أيضا
لهذا الجيل ﴾ . .



ويتحدث القرآن الكريم المنزل على محمد عليه الصلاة
والسلام

يتحدث عن الإنسان . فيعطيه صفته الحقة . كمحور
لسننط النبي . وموضوع لرسالته

﴿ لقد خلقنا - الإنسان - في أحسن
تقويم ﴾

﴿ لا إله إلا أنا حلفناه من

﴿إِنْ - الْإِنْسَانُ - خُلِقَ هَلُوعاً﴾ ..



﴿إِنْ - الْإِنْسَانُ - لِيَطْغَى ، أَنْ رَأَاهُ
استغنى﴾ ..



﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ - أَعْرَضَ
وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ ..



﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ - ضُرٌّ دَعَانَا﴾ ..
﴿وَكَانَ - الْإِنْسَانُ - أَكْثَرُ شَيْءٍ
جَدلاً﴾



﴿وَيَدْعُ - الْإِنْسَانُ - بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ
بِالْخَيْرِ﴾ ..



﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، وَالْجِبَالِ ، فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا -
الْإِنْسَانُ -﴾ ..

الستم تجدون لتكرار كلمة « إنسان » سبباً وثيقاً من
الحنان والبر ، ومن العناية ، والاهتمام ، يصله بالله ،
وبمحمد رسوله ؟

إن الإنسان ، هو موضوع الرسالة إذن ، رسالة محمد ،
ورسالة المسيح .. ونحسب هذا من البدهة بحيث
لا يحتاج إلى تقرير ..
وإلا ، ففيم كان مجئ الرائدین الشاهقین والرسولین
الكبيرین ؟

● ولأنهما بُعثا من أجل الإنسان .. كانا إنسانين .. كانا
رجلين من البشر .. اثنين من عباد الله ومن أولاد آدم ..
يأكلان الطعام ، ويمشيان في الأسواق .
ولم يجيئاً ملكين .. لم يجيئاً من عالم غير عالمنا ،
ولا من طبيعة غير طبيعتنا ، بل لم يُخْلَقَا في خَلْقٍ يَغاير
خلقنا .

﴿ ولو شئنا لنزلنا عليهم من السماء ملكاً
رسولاً ﴾ .

هكذا يقول الله سبحانه ، وهو لم يُنَزَّلْ ملكاً ، لأن
الإنسان الصامد أمام تجربة الحياة .. الإنسان الذي حمل
أمانة الوجود بعد أن أشفق من حملها ، وتنحى عنها
خلائق كثيرة كانت تسير معه في سباق التطور العظيم .
الإنسان هذا ، خَلِيقٌ بأن يتلقى من نفسه ، الدرس
والمثل .. وإذن ، فلتأته رُسُلُهُ مِنْهُ ..

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم ،
عزيزٌ عليه ما عنتم حريص
عليكم﴾ ..

● ومن هنا ، يبدأ توقير محمد والمسيح للإنسان .
يبدأ من إمعانها الكبير في توكيد بشريتهما ، وإعلان
إنسانيتهما ، ووضع وجودهما داخل هذا الإطار دوماً ..
ولقد كانا ، وهما يرفضان الشطط في إطرأتهما ..
والغُلُو في توقيرهما إنما يقرران القيمة الحقّة للإنسان ..
كأنهما يقولان لمن يحاول سلخهما من بشريتهما :
أىّ مقام هناك أسمى ، وأعظم ، تريد أن تذهب بنا
إليه .. ؟ !!

وماذا فوق الإنسان من خَلْق .. ؟
الملائكة مثلاً .. ؟

إنهم في خدمة الإنسان الصالح الكادح ..
وحين أراد الله أن يصطفى لنفسه خلفاء في الأرض ،
تعالت ترنيمات الملائكة ، ضارعة ، مبتهلة أن يكونوا
أصحاب الحظ في هذا الاصطفاء ..
لكن الله رَمَقَ « الإنسان » بعينٍ حانية ، وأشار نحوه في
حب غامر وقال :

هذا هو الخليفة .. !!

إذن ، فالإنسانية ، هي الجنسية المشرفة التي يحملها
المسيح ، ويحملها أخوه ، وهما بها جدُّ فخورين .
عيسى يقول :

أنا ابن الإنسان .

ومحمد يقول .

أنا بشر مثلكم .

ويؤكدان هذا المعنى أكثر ، وأكثر ، حين ينهى المسيح
من أطرى صلاحه فيقول له :

﴿ من قال إني صالح ؟ ! ليس من أحد
صالح سوى واحد ، هو الله ﴾ ..

ويطلب إلى تلامذته ألا ينعته بالمسيح .. !
وينهى الرسول أصحابه حين يقولون له أنت سيدنا ،
ويقول لهم :

﴿ لستُ سيِّداً لأحد ، إنما أنا عبد الله
ورسوله ﴾ .

كان حرصهما على أن يظلا في وعى الناس مجرد بشر ،
اعتداداً بدور الإنسان ، واعتزازاً بالبشرية نفسها ، ورغبة
أمنية في الحياة داخل إطارها ، وطبيعتها ..
حتى معجزاتهما ..

لم تكن تعنى - كما يحلو لنا أن نفهم - أنهما غادرا
صفوف البشر ..

فكل عمل عادى .. يتم بأسلوب غير عادى ، يشكل
معجزة ..

وإن ذلك ليبدو واضحاً في أعظم معجزات محمد
وصاحبه ..

فأعظم معجزات محمد ، هي محمد نفسه ..
وأعظم معجزات المسيح ، هي المسيح ذاته .
فماذا هناك .. ؟ ؟

إنهما ، بشرٌ مثلنا ، يعيشون على ذات الأرض ،
ويشربون من نفس الماء ، ويأكلون من نفس الطعام .
ولكن الأسلوب الذى اتبعاه فى نسج حياتهما
العظيمتين ، لم يكن أسلوباً عادياً ..

بل كان متفوقاً ، وخارقاً .. فكانت المعجزة .
والقرآن - مثلاً - كلام مَلْفُوظ .. ومسطور ، والكلام شىء
عادى ، لأن البشر جميعاً يتكلمون .

ولكن ، لأن هذا الكلام القرآنى جاء بأسلوب غير عادى ،
فقد صار معجزة ، ومعنى أنه جاء بأسلوب غير عادى ..
أن الإنسان الذى جاء به أمّى ، لا يقرأ ولا يكتب .. وأنه
بذل فى إعداد نفسه ورُوحه كى يستطيع تلقّيه عن ربه ،
جهوداً ، أكثر من مضمّنية ، وأكثر من خارقة .

والمسيح ، حين يشفى المرضى اليائسين ، وحيز يرد
إلى الحياة من اقتربوا من غيبوبة الموت . إنما يمارس
عملاً عادياً من أعمال البشر ، وهو التطبيب . والعلاج
ولكن ، لأن شفاءه للمرضى يتم بأسلوب غير عادى .
وهو لمسة كف أو نظرة عين .. فهنا يكون العمل معجزاً

* * *

أجل .. لقد كانت القوة الخارقة التي يرد بها المسيح العافية إلى المزمنين ، والتي يدرأ بها الموت عن الحياة المتعلقة بآخر خيوطها .. كانت قوة نابعة من ذاته . ولكن ذاته ، لم تكن مثل ذواتنا .. بل كانت مؤهلة لعظائم الأمور ، سعباً بطاقات فريدة وهائلة . وفي حياة المسيح نبأ يصور هذا المعنى ، ويجسمه . يرويه إنجيل « لوقا » ..

ف ذات يوم ، كان يعبر الطريق ، ومعه نفر من تلامذته ، واقتربت منه في زحمة الحافين حوله ، سيدة كانت تعاني نزيفاً مزمناً .. وفي إيمان عميق واثق لمست هُذْبَ ثوبه . وتوقف المسيح عن المسير فجأة ، وقال :
﴿ من الذى لَمَسْنِي .. ؟ ﴾ .

ويجيب تلميذه ، بطرس :

— ﴿ يا معلم ، إنها الجموع تضيق عليك ، وتَزَحْمُكَ ﴾ ..

ويعود السيد المسيح ، فيؤكد أن أحداً لمسه ، لأن قوة خرجت منه :

— ﴿ لقد أحسست بقوة تخرج مني ﴾ .. !!

قوة تخرج منه .. ؟ ؟

أى تفسير عجيب للمعجزة .. ؟ !

لكأنه أت من عقل رياضى ، وليس من قلب مسيح .. !
إن الإنجيل يتم هذا النبأ ، فيخبرنا أن العلة زائلت
المرأة المريضة فى نفس الوقت .

وهكذا ، يساعدنا المسيح على فهم المعجزة ، وإدراك
ما حدث حين يقول : إن قوة خرجت منى ..
فالذى حدث ساعتئذ ، أن رغبة إنسانية ، مؤمنة
مستسلمة ، تعلق بطاقة بشرية غامرة ، طالبة منها العون
على الشفاء والخلص ..

جهاز استقبال سَوَى ، التَّحَم بجهاز إرسال قوَى ، فتلقَى
عنه فى نفس اللحظة والوقت ..

أجل ، فلم تكن لمسةً عابرةً مسترخيةً مسترييةً ، تلك
التي نَبَّهت المسيح إلى جزء من طاقته يغادرها وينفصل
عنها . بل كانت لمسة هاتفة ، داعية ، ضارعة ، مبتهلة ..
كانت إيماناً مفعماً ، يتحسَّس طريقه فى ثقة
واستنهاض ، إلى ملاذ هو وجده ، وفى تلك اللحظة
بالذات ، الأمل الأوحده ، والرجاء الأعزَّ .

ولقد أراد المسيح أن يؤكد لتلامذته الذين بهرهم شفاء
المريضة ، أن ليس فى الأمر شيء غير طبيعى ، فأشار
للمرأة قائلاً :

— ﴿ إيمانك قد شفاك .. ﴾

﴿ اذهبي بسلام ﴾ .. !!



هذه المعجزات .. لم تكن - كما قلنا قبلاً - خروجاً
بالرسولين الكريمين عن صفّ البشرية .
كما لم تكن تغريراً بالبسطاء ، وكسباً لإيمانهم .. فالذى
لا يهديه إلى الإيمان نور الشخصية ، وجلال العمل ،
لن يهديه شيء آخر ..

● ثم إن محمداً ، والمسيح ، لم يهتمّا بشيء مثل
اهتمامهما بأن يُحررا البسطاء من غفلتهم وسذاجتهم ،
ويحرّرا الذكاء الإنسانى مما يُوبقه من رواسب الرؤى
المغلوبة ، والأساطير الموروثة .
لقد خسفت الشمس ، يوم مات « إبراهيم » ابن
رسول الله .

وقال أصحابه : « إن الشمس خُسفت لموت إبراهيم » ..
أفلم تكن هذه فرصة طيبة للرسول ، لو كان مُنتَجِلَ
عجاده

بلو
قالها
يفعل
س عليه إلا أن يصمت ، ويدع العبارة التى
تنتشر . ولكنه لا يفعل .. ولا ينبغي له أن
ي . فى أصحابه قائلاً :

— ﴿ إن الشمس والقمر آيتان من
آيات الله .. لا ينخسفان لموت
عبد .. ولا لحياته ﴾ !!!

فف العظيم .. موقف المسيح .
ير .. « يائرس » رئيس المجمع يُؤلول ، وينكفىء

فوق قدميه يقبلهما أمام الكافة ، ويتوسل إليه ، كي يذهب
إلى ابنته التي ماتت ليرد إليها الحياة .
ويدخل المسيح على البنت ، وأهلها حولها . ينوحون
ويضجون وَيُلْقَى على الجسد المسجى نظرة طاهره
قادرة ، فيتحرك الجسد تحت غطائه .
وتتحول الضجة الباكية الحزينة إلى دهشة . وفرح
وصياح ..

إن المسيح أحيّاها .. " .
ولكن الصادق العظيم ، يشير إليهم بكفه المضئمة ،
إذا صمتوا فال لهم

في إنها لم تمت .. لقد كانت
نائمة . !!!

تأملوا هذين الموقفين جيداً ، موقف محمد من خسوف
الشمس . وموقف المسيح من ابنة « يائرس » .
ثم اعلموا أنكم أمام روع مثل لتكريم الإنسان ،
ولاحترام عقله ، ولتحريره من غوغائيته وسذاجته .
والرجل العادي ..

إن النظم ، وإن الحضارات ، لتمتحن بمدى ما تقدم
للرجل العادي من خدمات ، وما تهيء له من فرصة .
وما تضيفه عليه من تكريم .
ذلك ، لأن (الرجل العادي) يمثل المجموع . ويشكل
دوماً أكثرية المجتمع والأمة .

والنظم القويمة ، والقوانين العادلة ، إنما تُسَنُّ في الحقيقة لحماية (الرجل العادى) ، وإرباء حظوظه في الحياة .

وفي المجتمعات التي تقوم على التمايز الباطل ، يقع (الناس العاديُّون) فريسة لطبقة معينة من الأشراف والسادة ، يلقون الرعب في قلوب غرمائهم وضحاياهم ، ويستحوذون في صفاقة وفُجْر على حقوقهم وأرزاقهم . وفي مثل هذه الأوضاع ، تتمثل حماية (الرجل العادى) وتكريمه في إعطائه الأولوية التي يستحقها بكدحه ، وبعمله .. وَمَنْحَه التقدير الأدبى والمادى الذى يرشحه له طول بلائه .. ثم تكون بزجر تلك العصابات الضالة المتغترسة النُّهَازة التي تفتك بالعدل ، وبالحق .. وعزلها عن عرشها الزائف المغتصب .

ترى ، ماذا كان موقف يسوع ، ومحمد .. من الرجل العادى .. ؟

الإنسان الذى لا حول له من مال ، أو جاه ، أو منصب . المستضعف ، الذى طالما يُتخذ ظهره مرعى لسياط الطغاة .. !!

الكادح ، الذى طالما يصطنع عرقه نبیذاً ، يكرعه الجنة .. !

الحق أن موقفهما مع (الرجل العادى) يبهر الألباب . وسنبصرهما الآن ، وهما يجذبان (الإنسان العادى) هذا ، لياخذ مكانه في الصف الأول .

ثم ، وهما يَنهالان على كبرياء الأشراف الكاذبة ،
فيمحقانها محققاً .. !
ولنبداً بالمسيح .



هل تبصرون هذا القائم هناك .. وسط هالة من صفاء
روحه .. وفى يمينه سفر (أشعيا) يقرأ منه .. ؟ ؟
إنه هو ، عيسى روح الله وكلمته ، فلفصع إليه :

﴿ روح الرب مسحني ، لأبشر

المساكين .. ﴾

﴿ أرسلني ، لأشفي منكسرى

القلوب .. ﴾

﴿ لأنادي للمأسورين بالانطلاق .. ﴾

﴿ وللعمي ، بالبصر .. ﴾

﴿ وأرسل المُنْصَحِّقِينَ فى

الحرية ﴾ .. !

وهذا أيضاً .. المطلُّ من بين الحشود الحافّة حوله .

إنه هو ، يتحدث :

﴿ طوباكم أيها المساكين ، لأن لكم

ملكوت الله ﴾ .

﴿ طوباكم أيها الجياع الآن ، لأنكم

تشبعون ﴾ .

﴿ طوباكم أيها الباكون الآن ، لأنكم

ستضحكون ﴾ .. !

إن المسيح يحدد مكانه فى المجتمع حين يستشهد
بكلمات أشعياء ، ويتحدث بها كنبراس له ، ومنهاج .
إنه مع المساكين ، كى يبشرهم .

مع منكسرى القلوب ، ليجبر قلوبهم .

مع المأسورين ، كى يحطم أغلالهم وَيُطْلِقَهُمْ .

إنه مع (الإنسان العادى) الذى ليس معه من مال
الدنيا ، ولا من جاهها ، ولا من سلطانها ، ما يرد إليه
حقوقه التى اغتصبها منه الذين هم فوق .

لقد سلّح الناس العاديين بأقوى الأسلحة ، الإيمان
والأمل ، حين قال لهم بلسان الرب القدير : طوباكم ..
وقفز بمكانتهم الاجتماعية إلى الصدارة ، حين جعلهم
من الأهمية إلى حد أن يرسل الله من أجل حمايتهم ،
وتصحيح أوضاعهم ، رسلاً ..

﴿ روح الرب مسّحنى ، لأبشر المساكين ﴾ ..

﴿ لأنادى للمأسورين بالإنطلاق ﴾ ..

إن هذه العبارة وحدها : « أنادى للمأسورين
بالإنطلاق » لتمثل المفهوم الثورى لدعوة المسيح ،
وتشير إلى الخطة الكاملة التى كانت ستقبّدى خلال نضاله
من أجل الجماهير المهضومة .. لو قدّر لأيامه على الأرض
أن تطول .

هذا الروح الكبير ، الذى كان يعبر الطريق ، باحثاً عن
مفلوج ، ليشفيه .. أو مصروع ، ليداويه .
والذى يوصى كل مؤمن به ؛ فيقول :

﴿ وإذا صنعت ضيافة ، فادعُ
المساكين ، الجُدْع ، العُرج ،
العمى .. فيكون لك الطوبى ﴾ .. !

إنه يصحح بهذه الأساليب الملائمة للبيئة ، والعصر ،
وضع (الرجل العادى) فى مجتمع ينتهك حقوقه
ويزدريه .

لكن هذا ، لا يكفى .

وكل إيماء بالكرامة والأمل لذلك الكائن المقرر
المرتعث ، خليق بأن يذهب بدءاً تحت وطأة الإذلال
الموصول ، الذى يصبُّه عليه صَبّاً ، السادةُ الأغْلَوْن .
إذن ، فلحساب (الرجل العادى) يقرر المسيح أن
يخوض معركة كبيرة مع أولئك الأشراف .
أولاً : ليزجر غرورهم ، ويفتَح أعينهم على آثامهم
ومظالمهم .

وثانياً : ليُغْرِى بهم أولئك المستضعفين الذين
يتربُّحُون ، فَرَقاً منهم وخوفاً .
ولقد فعل ..

وبدأ بالطبقتين اللتين كانت لهما على الناس وطأة
مميّنة .. طبقة الكتبة ، وطبقة الفرّيسيين .

وأمام حشد هائل من الناس ، واجههم ذات يوم ..
ووقف « ابن الإنسان » يتفجّر ذكاء ، وعُنفواناً ، وصدقاً .
وقف وحده ، اعزل .. لا مال ، ولا سلاح ، ولا عصبية ،
ولا حزب ... !!!

وهذا ، هو الدرس .. فلو أنه قوى ، غنى ، مُدَجِّج
بالأنصار المتحمّزين ، ما تركت كلماته المقبلة في أنفس
المستضعفين أثرها المرتجى ، ولا حركت فيهم إرادة
التحدى ، والمقاومة .

إن الدرس لنافع ، حين يُدغدغ كبرياء العصابة
المستعلية ، رجلٌ يُمثل حالة الجماهير تماماً ..

اعزل ، مثلما هي عزلاء ..

فقير ، مثلما هم فقراء ..

مضطهد ، كما هم مضطهدون ..

ولقد وُجد الرجل ..

وُجد روح الله وكلمته ..

وها هو ذا ..

الجموع من حوله ، وقد تعلقت به أبصارهم في انبهار

ووَجَل ..

ودهاقنة الطبقة المستعلية ، أمامه ، وجهاً لوجه ..

لا .. بل وجوهاً منكسرة زاوية .. أمام وجه مُتهلل ، وجَبْهة
عالية .. !!

وفى سخرية مَاحِقَة ، يبدأ حملته :

﴿ على كرسى موسى .. ﴾
﴿ جلس الكتبة ، والفريسيون .. ﴾ !
﴿ فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه ،
فاحفظوه .. ولكن حسب أعمالهم
لا تعملوا .. لأنهم يقولون مالا
يفعلون ﴾ .. !!

وتنبعث هممة استنكار من جانب السادة ، ولكنها
تتلاشى سريعاً في خضم الإعجاب الذي جاء من جانب
الحشود ..

ويستأنف حديثه عن أشرف « أورشليم » الممثلين
أمامه في الكهنة ، والكتبة ، والفريسيين ، فيقول :

﴿ إنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة ، عسرة
الحمل ، ويضعونها على أكتاف
الناس .. وهم لا يريدون أن يحركوها
بأصبعهم ﴾ ..

﴿ وكل أعمالهم يعملونها ، لكي
ينظرهم الناس .. فيعرضون
عصائبهم ، ويعظمون أهداً
ثيابهم .. ويحبون المتكأ الأول في
الولائم .. والمجالس الأولى في

المجامع .. والتحيات فى الأسواق ..
وأن يدعوهـم الناس ، سيدى ..
سيدى ﴿ .. !!

ثم يندفع صوته فى هدير ، حارّ ، متوهج ..
وتتعلق . أبصار الجموع بكلماته كأنها الحصى ،
والنجدة ، والملاذ ..

﴿ .. لكن ويل لكم ، أيها الكتبة
والفريسيون المراءون ، لأنكم تغلقون
ملكوت السموات قدام الناس ،
فلا تدخلون أنتم ، ولا تدعون
الداخلين يدخلون .. ﴾ !

﴿ ويل لكم ، أيها الكتبة والفريسيون
المراءون .. لأنكم تأكلون بيوت
الأرامل ، وليلة تطيلون صلواتكم ..
لذلك تأخذون دينونة أعظم ﴾ .. !

وتختلج على وجوه الناس بشائر قوة وعزم .. فيلقفها
المسيح ، وينفخ فيها من روحه لتنمو .. ثم يدمدم
بسخريته على السادة :

« ويل لكم ، أيها القادة العميان .. ﴾

﴿ القائلون : من حلف بالهيكل ،
فليس بشيء .. ولكن من حلف بذهب
الهيكل يلتزم .. ﴾ !

﴿ أيها الجهال والعميان .
﴿ أيما أعظم .. الذهب .. ؟
أم الهيكل .. ؟ ﴾

﴿ ويل لكم ، أيها الكتبة ، والفريسيون
المراؤون ﴾ .

﴿ لأنكم تشبهون قبوراً مَبْيُضَةً .. تظهر
من خارج جميلة .. وهى من داخل
مملوءة عظام أموات .. ﴾

﴿ وهكذا أنتم أيضاً ، من خارج
تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من
داخل ، مشحونون رياءً وإثمًا ﴾ !!

لحساب من كانت تلك الحملة الصاعقة على محرفى
الشريعة ومستعبدى الإنسان .. ؟ ؟

كانت لحساب « الناس العاديين » .. لحساب الإنسان ،
وكرامته وحقوقه ..

لحساب بعثه العظيم الذى جاء المسيح يمهد له

الطريق ، وينحى عنه أولئك الذين « يحزمون أحمالاً ثقيلة
عسرة الحمل ، ويضعونها على أكتاف الناس .. !!



والآن .. إلى رفيق عيسى ، وأخيه .. إلى « محمد »
لنبصر موقفه مع (الرجل العادى) .. وموقفه من
مستغلبه ..

ولسوف يبهرننا بمثل ما بهرننا به المسيح ..
ولا بدع .. فروحاهما العظيمان ، سقيا بماء واحد ،
واصطنعهما لنفسه أحسن الخالقين ..
والتجربة لدى الرسول ، رائعة ، وحاسمة ..
إذ نشهد فيها الرسول نفسه ، وهو يتلقى من ربه الكبير
خُطّة العمل ، والنهج الذى يحدده واجبه تجاه (الرجل
العادى) ..

كيف .. ؟ ؟ ؟

إليكم النبأ العظيم .

عندما أذاع « محمد » دعوته ، اقترب منه الفقراء ،
والمستضعفون شأن كل دعوة حية ، طالعة ، منقذة ..
وذات يوم ، طرق باب الرسول مبعوث لأشراف مكة
وكبرائها ، يقول له :

﴿ يا محمد ، إن أشراف قومك يرون
أن يستمعوا لك ، ولكنهم لن يجلسوا
مع صعاليك مكة وفقرائها .. فإن شئت

أن تجعل لهم يوماً ، ولأتباعك
يوماً .. ﴿

والرسول بطبعه ، لا يحمل في نفسه ، ولا في تفكيره ،
ولا في سلوكه ، أدنى اعتبار لمثل هذا التمايز .
وهو إذن لا يرى بأساً في أن يجيب هذه الرغبة ، حتى
يربح الإيمان والفضيلة ، تلك النفوس الشاردة ، وعندئذ ،
سيبحث هؤلاء أنفسهم عن الفقراء والصعاليك
ليجالسوهم ، ويزاملوهم ، بعد أن تلين قلوبهم لذكر الله
وما نزل من الحق .

ويطلب الرسول إلى الرجل أن يعود إليه في غد ، حيث
يكون قد فكر .. أو يكون قد جاءه من الله وحى .
وفي غد ، يرجع مبعوث الأشراف في ميعاده ، ليتلقى
من الرسول رقضاً أكيداً ..
ماذا حدث .. ؟

لقد جاءت كلمات الله ، تحمل للرجل العادي أعظم
تكريم .

الم يكن السادة يريدون لأنفسهم مجلساً غير مجلس
الناس العاديين .. ؟ ؟
لا .. لن يكون لهم ذلك أبداً ..

﴿ واضْبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم
بالغداة والعشي ، يريدون وجهه .
ولا تعدْ عيناك عنهم تريد زينة الحياة

الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن
ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً ﴿ ١٠٤ 〉 ،



﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة
والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من
حسابهم من شيء ، وما من حسابك
عليهم من شيء . فتطردهم ، فتكون
من الظالمين ﴾ ..

انظروا ..

إن رغبة السادة هذه ، لو تحققت ما ترتب على تحقيقها
ضياع حق للآخرين .. ثم إنها قد تفضي بقوم ضالين إلى
الهداية ، والخير .. وعلى الرغم من هذا ، يرفضها الله في
حسم ، ويعتبرها من زينة الحياة الدنيا التي لا ينبغي
للمرسول أن يريدها .. !

إن روعة هذا المشهد تتمثل في كشفه عن مكانة الرجل
العادي في عين الله .. وفي تبيانها: غيرة الله على ذلك
الإنسان العادي .

إن الله سبحانه ، ليجعله موضوع وصية مفعمة
بالحنان ، مترعة بالمحبة ، حين يقول لنبيه :
﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ ..

ويعتبر التمايز ، طرداً لهم وظلماً ..
فيقول لرسوله : « وما من حسابك عليهم من شيء ،
فتطردهم ، فتكون من الظالمين » .. !!
ويسير الرسول وَفَّقَ هذا التعليم السديد الرشيد
العظيم .. فلا يكاد يبصر الناس العاديين هؤلاء ، قادمين
نحوه ، فى أى ساعة .. فى أى يوم ، حتى يتلقاهم
بحفاوة ، ويبسط لهم رداءه ليجلسوا فوقه ، ويقول .
﴿ أهلاً بمن أوصانى بهم ربى ﴾ .. !!

الإنسان العادى إذن . الذى يمثل جمهرة الأمة والشعب
فى كل بلد . كان وصية الله لمحمد ، مثلما كان وصيته
سبحانه للمسيح .. مثلما كان وصيته لكل نبي ، وكل
رسول .

وكما رأينا المسيح يعمّق هذا المعنى فى وعى
تلاميذه ، نرى الرسول يعمقه فى وعى أصحابه .
ذات يوم ، يمر به رجل بادى الفقر والمسكنة .
فيسأل النبي جلساءه :

« ما تقولون فى هذا » . ؟؟

فيجيبون : « هو والله خليق إن حَظَبَ ألا يُرَوِّج . وإن
تكلم ألا يُصْغى إليه » .

ويصمت الرسول حتى يمر رجل آخر عليه مخايل النعمة
ومظاهر الثراء .. فيسألهم :

﴿ ما تقولون فى هذا .. ؟ ؟ ؟ ﴾

فيجيبون : « هو والله ، حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ أَنْ يَزُوجَ .. وَإِنْ
تَحَدَّثَ أَنْ يُسْتَمَعَ لَهُ » ..
فيقول لهم الرسول :

﴿ والذي نفسى بيده ، إِنْ الْأَوَّلُ ، لَخَيْرٌ
مِنْ مَلَأِ الْأَرْضَ مِنْ مِثْلِ هَذَا ﴾ .. !!!
هنا رسول ، يحرر قيمة الإنسان من كل زيف ، وزور .
يحررها من الأوضاع الكاذبة المفتعلة ، ويردها إلى مكانها
الحق ، فى جوار الخير ، والعدل ، والحق .
ولا يترك الرسول فرصة لتكريم الناس البسطاء
العاديين ، إلا اهتبلها .
يقف بين يدي الله داعياً ضارعاً :

﴿ اللهم أحيى مسكيناً ، وأميتنى
مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة
المساكين ﴾ .

وإذا كانت « الجنة » تمثل فى دينه ودعوته ، أرفع
المثوبات ، وأبقاها .. وأقصى الدرجات العلى .
وأسمائها .. فقد أراد عن هذا الطريق ، أن يكرم (الرجل
العادى) تكريماً ، يجعل الأشراف والسادة يتطامنون ،
ويتمنون لو لم يكونوا أشرافاً ، ولم يكونوا سادة ..
ماذا قال « الرسول » فى هذا المقام .. ؟
قال :

﴿ قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين ﴾ .

وهو يبحث دوماً عن الناس العاديين ، ليجالسهم ، ويقول :

﴿ ابغوني - أى اطلبوني لى - ضعفاؤكم ﴾ .

ثم يقرر الصفة الاجتماعية لهم ، وكيف أنهم الكادحون ، المنتجون للثروة ، وللدخل القومى .. فيقول :

﴿ إنما تُنْصَرُونَ ، وتُرْزَقُونَ بضعفائكم ﴾ .

والرسول حين يستعمل كلمة « مسكين » وكلمة « بضعفائكم » لا يعنى بالمسكنة ، الهوان .. ولا يعنى بالضعفاء ، العجزة ..

وإنما يعنى الناس البسطاء الذين يأخذون فى « الكادر » الاجتماعى مكاناً بسيطاً متواضعاً ..

ولم يقتصر تكريم الرسول للرجل العادى على تمجيده ، وتمجيد تواضعه ، وحياته العامة المتعففة .. بل شاركه هذه الحياة ..

لقد كان أكثر أهل المدينة فقراء ..

فالإنتاج محدود ، والدخل قليل ، فأخذ الرسول عليه السلام مكانه إلى جوار الأكثرية الفقيرة ..

كان يستطيع أن يحيا حياة أرغد ، بنصيبه من الفئء ،
والغنائم ، وبالهدايا التي لا تنقطع قوافلها .. ولكنه أبى ..
وجعل ذلك كله أو معظمه ، من حظوظ أمته وأصحابه ..
لا حبا فى الجوع ، ولا اختياراً للفقير .. ولكن مشاركة
للأكثرية ، ومعاناة لما تعانیه . تقول السيدة عائشة زوجة
الرسول :

﴿ كان يأتى علينا الشهر ، ما نُوقِدُ فيه
ناراً .. إنما هو التمر ، والماء ﴾ ..

وتقول :

﴿ ما شبع آل محمد من خبز البرِّ ثلاثاً ،
حتى مضى لسبيله ﴾ ..

وتقول :

﴿ ما أكل آل محمد أكلتين فى يوم واحد
إلا وإحداهما تمر ﴾ ..

ويقول هو ، عليه الصلاة والسلام :

﴿ لقد أُخِفْتُ فى الله ، ما لم يخف
أحد .. وأُوذيت فى الله ، ما لم يؤذ
أحد .. ولقد أتى على ثلاثون ما بين يوم
وليلة ، ومالى ولبلال من الطعام ،
إلا شئ يوازيه إبطُ بلال ﴾ .. !!

مرة أخرى .. لم تكن هذه الزهادة عن حاجة وفقدان دائماً .. بل كانت طريقة مختارة ، وخطّة مقصودة .. ولقد فُتحت عليه دنيا من الخيرات ، فما غيّر من سلوكه هذا شيئاً .. بل كان حين يجيئه الفىء ويوزعه بين أصحابه ، يرجىء ابنته « فاطمة » ويقول : « حتى يكتفى الناس أولاً » .. !!

وكثيراً ما كانت الأعطيات تتقاصرُ دون حاجات الآخذين .. ولا تنال فاطمة منها منالاً ، فترضى ، وتصبر ، لأن أباهما العظيم قد وضع لأهل بيته شعاراً فحواه « أن محمداً وأهله ، هم أول من يجوع ، إذا جاع الناس .. وآخر من يشبع ، إذا شبع الناس » .. لم يكن هذا السلوك من الرسول عن خصيصة إذن .. لا .. ولا كان تمجيذاً للفقر الذى جعله الرسول فى بعض أحاديثه تؤام الكفر .

إنما كان :

● تكريماً للكدح ..

● وإعزازاً للبساطة ..

● وتوفيراً للرجل العادى ، الذى هو الأمة ،

والشعب ..



وللإنسان حقوق كثيرة ، لابد من صيانتها ، حتى يستطيع أداء دوره فوق الأرض .
وعلى رأس هذه الحقوق جميعاً :

● حق معاشه ..

● وحق ضميره ..

وإن هذين الحَقَّين ليكادان يلخصان حقوقه كلها ، تلك الحقوق التي تفتحت عليها أبصار وبصائر الرسولين الكبارين الكريمين ، محمد ، والمسيح .

أما حق المعاش ، فيعنى تحقيق كافة الظروف الاقتصادية التى تهيبء للإنسان حياة عادلة ، رغيدة . وهو لهذا ، يهدف إلى حماية الإنسان من الاستغلال والنهب ..

وحماية الثروة العامة التى هى حق الناس جميعاً ، من ضراوة المحاباة ، ومن كل فنون السرقة ، والسفه ، والاختلاس ..

لقد دَمَدَمَ المسيح كثيراً بكلمات لاهبة على أولئك الذين يستمرئون عرق الكادحين ؛ وحقوق العاملين .
أولئك :

﴿ الذين يأكلون بيوت الأرامل ، وَلِئَلَّا يطيلون الصلاة ﴾ .

و﴿ الذين يظلمون الفَعْلَةَ ، والحصادين ، بينما صياحهم قد وصل إلى رب الجنود ﴾ .

وإنه لجدير بأن يفعل ، وما كان ليترك الظالمين إلى العدل ، يعانون جفاف الحلوq ، واستعار الهجير ، بينما

حفنات من المترفين والمستغلين يتبذخون في البجوحة ،
والظل .

ما كان له أن يصرف نفسه عن هذا الوضع ، فإنه ليعلم
أن عاقبة ذلك الخسرُ والوبالُ للأمة التي يعبث فيها هذا
التمايز الظلوم ..

إنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويمزقها ..

و ﴿ كل مملكة منقسمة على ذاتها ،
تخرب .. وبيت منقسم على نفسه
يسقط ﴾ .. !!

لقد كان الوضع الاقتصادي في الجماعة اليهودية أيام
المسيح ، رديئاً ، وقاسياً ..

كان وكلاء « روما » وتجار اليهود ، ورؤساء الكهنة
سواءً في التآمر على عرق الكادح ، ولقمة الجائع .

ولقد تفتحت عينا المسيح في طفولته ، وفي شبابه على
السياط الباغية ، تسليخ ظهور الناس من أجل ضريبة
تأخروا في دفعها .

ولو طال به العمر ، لكان له مع هذه الأوضاع الشاذة
وقفة طويلة ، وحامية .

لكنه رغم السرعة الوامضة التي لبثها مع دوره العظيم
على الأرض ، وعلى الرغم من المُنتهى القريب الذي تعجّل
رحيله ، لم يترك ذلك الوضعَ دون أن يصححه بكلمات
مضيئة وجامعة .

قال لتلاميذه الاثنى عشر حين أرسلهم يكرزون
بملكوت الله :

﴿ لا يكن للواحد ثوبان ﴾ ..

وهتف طويلاً بكلمات سلفه الشهيد « يوحنا » :

﴿ من له ثوبان فليعط من ليس له ..

ومن له طعام ، فليفعل هكذا ﴾ ..

وذات يوم ، وهو يعبر الطريق وديعاً كأنفاس الزهر فى
فجر الربيع ، لقيه واحد من الناس ، وسأله :

﴿ أيها المعلم الصالح .. ماذا أعمل

لَأَرِثَ الحياةَ الأبدية ﴾ .. ؟؟

فأجابه :

﴿ لماذا تدعونى صالحاً .. ؟؟ ليس

أحد صالحاً إلا واحد ، وهو الله .

﴿ أنت تعرف الوصايا ﴾ .

﴿ لا تزن .. لا تقتل .. لا تسرق ..

لا تشهد بالزور .. لا تسلب .. أكرم

أباك وأُمك ﴾ .

قال الرجل : « يا معلم ، هذه كلها حفظتها منذ

حداثتى » ..

فأجابه المسيح :

﴿ يُعْوزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ﴾ ..
﴿ اذهب ، بع مالك ، وَأَعْطِ
الفقراء ﴾ .. !!

وهكذا ، فإن ابن الإنسان ، وهذه دعوته ، وهذا منهاجه
وسلوكه ، لا يمكن بحال ، أن يقر أى نظام يقوم على
استغلال العَرَق ، واحتكار الرزق ، وتجميد الثروة ،
وتعويق فرص المعيشة الكريمة الطيبة ..



ويجىء محمد رسول الله ، فيصون حقوق العَمَل ،
والعرق ، بتعاليم تناهت فى الرشد ، والذكاء :

﴿ أعطوا الأجير أجره ، قبل أن يجفَّ
عرقه ۞

﴿ لا تكلفوا الصبيان : ب .. فإنكم
متى كلفتموهم الكسب سرقوا ﴾ .

وحين يكون هذا الأجير خادما ، يرتفع محمد بمستواه ،
ويعلو ..

﴿ لا تقولن أحدكم عبدى .. وأمتى ..
وليقل فتاى وفتاتى ﴾ .

﴿ .. هم إخوانكم فأطعموهم
مما تطعمون ، وألبسوهم
مما تلبسون ﴾ ..

ولا تكون الثروة مشروعة وحلالاً ، إلا إذا كانت من كَسْب طَيِّب ..

والكسب الطيب ، هو الذى لا مكان بين وسائله ، للأنانية ، ولا للاحتكار ، ولا لاستغلال الكادحين والعاملين .

ولأموال الشعب ، عند محمد حرمة جدّ عظيمة .. إنه ، ليغفر كل الخطايا ، ويتلمس المعذرة لشتى الآثام ، إلا لجريمة واحدة ، يرفع فى وجهها وفى وجوه مرتكبيها قصاصاً مشحوناً ..

هذه الجريمة هى : العدوان على مال الشعب . انظروا ..

أتاه ذات يوم ، رجل ، نادماً يعترف فى إسفار بجريمة « زنا » ارتكبها ..

وبعد أن استمع الرسول لقوله ، أراد أن يفتح له على المغفرة ، وعلى النجاة نافذة .. فقد لمح من ندمه الضاغط ، ومن توبته الصادقة ، ما ينبىء بعزم أكيد على الاستقامة .. ومضى يحاول ثنّى الرجل عن اعترافه .. كي يتحلّل هو من إنزال العقوبة به ..

ولكن هذا التسامح الرحيب ، يكاد يختفى تماماً ، ليحلّ مكانه غضب مُدمٍم ، وقصاص رهيب .. حين تكون الجريمة عدواناً على أموال الأمة ..

كان له - عليه الصلاة والسلام - خادم - اسمه « رفاعة

ابن زيد ، .. أصابه فى إحدى الغزوات سهم فأنهى حياته ..

وبعد انفضاض القتال ، أقبل أصحابه عليه يعزونه فى خادمه ، وقال قائلهم :

﴿ هنيئاً له ، يا رسول الله .. لقد ذهب شهيداً ﴾ .

فأجابه الرسول فى أسى :

﴿ كلا .. إن الشُّمْلَةَ التى أخذها من المغانم يوم خيبر ، لتشتعل عليه ناراً ﴾ .. !!

أرأيتم .. ؟

إن هذه الشُّمْلَةَ ، ما دامت جزءاً من غنيمة ، أو فىء ، ليست ملكاً لأحد .. إنها حق الجماعة كلها ، حتى ينال كلُّ حظُّه ونصيبه .

ولقد أخذها الغُلام ، وما تساوى أكثر من دراهم قليلة .
ولقد خَدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات شهيداً ..
ومع هذا كله ، بقى مطوّقاً بوزره الصغير .

ولكن ، من قال إنه وزر صغير .. ؟ ؟

إنها السرقة .. يستوى فيها القروش الضئيلة ..
والملايين الكثيرة . سيّما حين تكون سرقة أموال عامّة .
ويعلم الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً ، أن أحد

الولاة ، قبل هدية .. فيغضب غضباً شديداً ، ويستدعيه إليه ، فيأتى حثيثاً .. ويسأله الرسول صلى الله عليه وسلم :

— كيف تأخذ ما ليس لك بحق .. ؟؟

ويجيب الوالى معتذراً :

— لقد كانت هدية ، يا رسول الله .

ويسأله الرسول :

﴿ رأيت ، لو قعد أحدكم فى داره ،

ولم نُؤَلَّ عملاً ..

أكان الناس يهدونه شيئاً ؟ !

ويأمره أن يرد الهدية إلى بيت المال .

ثم يعزله عن ولايته وعمله . !

هكذا أعطى المسيح ، وأعطى الرسول حق المعاش للإنسان ، من عنايتهما ، ومن تعاليمهما ، ما يجعل العمل من أجل التوزيع العادل للثروة .. والتوفير الكامل للرخاء . واجباً محتوماً على المؤمنين بهما ، السائرين على نهجهما .

والآن .. إلى حق الضمير .



لست أعنى بالضمير هنا ، الوظيفة النفسية التى نسير فى الإنسان الندم على شَرِّ ارتكبه ، أو تحفِزه إلى خير تقاعس دونه .

إنما نعنى بالضمير الإنسانى فى مقامنا هذا ، غاية
أبعد ، ومعنى أرحب ..

نعنى به فى عبارة واحدة موجزة : « الإنسان فى
وجوده الحقيقى » .

هذا ، هو الضمير الذى سنرى الآن كيف حمى المسيح
حقه ، ورفع محمد لواءه .

إن الذى قال : « لم يخلق الإنسان من أجل السَّبْت ،
وإنما خلق السَّبْت للإنسان » ، جدير بأن يكون صاحب
فضل عظيم فى تحرير الضمير البشرى ..

ولقد قالها المسيح .. ولا أكاد أعرف عبارة تلخص
حقوق الضمير البشرى ، وتعلن جلاله . أوفى من هذه
الحكمة الفذة العظيمة ..

ولنبداً من البداية ..

حين تقدم المسيح ليعانق دوره العظيم ، ويبلغ
رسالات ربه . كان الضمير الإنسانى فى تلك الرقعة من
الأرض التى يسير عليها ، مصفداً بأغلال مبهمة ، وثقيلة ..
كانت « المساومة » تمحقه ، وتذلُّه ..

فكل سَكينة نفس .. كل طمأنينة قلب ..
كل مغفرة ترتجى .. كل فضيلة تُلتَمَس ..
كل حُرِّية تَراد .. يتقاضى عليها رؤساء الكهنة
أجراً .. !!

كل عطاء دينى بثمن .. دخول الهيكل بثمن .. التماس
البركة بثمن .. الصلاة للرب بثمن .. !!

وهكذا يترنح الضمير فى لوثات مساومة موجلة ،
ومتاجرة مسعورة .. حتى تحوّل إلى « آلة حاسبة » كل
عملها ، أن تحصى موبقات أصحابها .. ثم تحصى آثمان
مغفرتها ، وكفارتها .. !!
هذا ، أوّل .

● كذلك كان الضمير « مُجَمَّداً » لحساب أهواء ،
وتقاليد ، وطقوس ، لا تسمح له بمناقشتها ،
ولا باستحسان غيرها ، حتى لو يكون خيراً منها ..
ويرزح تحت وصاية غبية ، يقيمها حراس هذه التقاليد
وسدنتها .

وهكذا عاش الضمير فى كبّ قاتل ، لا يملك حق
المعارضة ولا حق التعبير عن نفسه .
لا يستطيع أن يناقش مساوىء الحكم ، لأن حكام
« روما » وجنودها ، لا يرحمون من يفعل .
ولا يجروا أن يناقش خرافات الكُهان ، وضراوة
التقاليد ، لأن الكُهان أشدّ قساوة وغلظة .
● وشيء آخر .. فالضمير البشرى فى هذه البيئة ، كان
يعانى اختناقاً مريعاً ..

كانت عنصرية ضيقة عِظنة ، تحتبس داخل كهفها
المظلم ، بعيدا عن هواء التسامح المنعش ، والإخاء
الرطيب الحانى .. ذلك أن « شعب الله المختار » كما كان
اليهود يسمون أنفسهم ، يعيش داخل مركب نقص شنيع ..
يوحى إليه دائماً أنه خُلِق ليحكم العالم ، ويسود الأرض ..

وانه أشرف من كل الأجناس ، والألوان ، والأمم ..
وانه ينبغي ، بل يلزمه أن يصون ذمه وسلالاته عن
التلوث بالدُّخلاء !!!

والدخلاء ، هم جميع بنى آدم من غير اليهود .. !!
ولا شيء يفنى الضمير الإنسانى ، ويمحقه مثل تفكير
من هذا النوع ، وحياة من ذلك الطراز .

والآن ، يتقدم « روح الله » المسيح عيسى ابن مريم ،
ليحرر ضمير الإنسان فى تلك الرقعة ، وفى ذلك الزمان من
ويلات أسره ، وظلمات سجنه .. ولتظل كلماته ومواقفه
التي سيحرر بها الضمير ، دستوراً حافزاً مضيئاً لكل
البقاء .. وكل الأزمان . !

بدأ ، فأنقذ الضمير من وطأة المساومة ، وحرره من
ربقة النفعية .

وإذا كانت ، هذه المساومة ، تعتمد على التخويف
الدينى ، وتستغل الضعف الإنسانى ، أدنا استغلال .. فقد
بدأ عمله من هنا ، ببعث الثقة فى رحمة الله ومغفرته ..
كما دغدغ ضراوة الشعور الحاد بالذنب حين يكون هذا
الذنب فردياً ..

أما حين يكون إثماً « جماعياً » أى رذيلة « طبقة »
خاصة ، تحقق لهذه الطبقة نفعا ، أو امتيازاً ، أو سلطاناً
غير مشروع .. فإنه يدمدّم ، ولا يتسامح ..
حدّث الإنسان الضعيف ، عن « الأب السماوى » ..
الرب البار الرحمن الرحيم :

﴿ .. من منكم - وهو أب - يسأله ابنه
خبزاً ، فيعطيه حجراً .. أو سمكة ،
فيعطيه حية .. أو بيضة ، فيعطيه
عقرباً .. ﴾؟؟

﴿ فإن كنتم - وأنتم أشرار - تعرفون أن
تعطوا أولادكم عطايا جيدة .. فكم
بالحرى أبوكم الذى فى السماوات .
يهب خيرات للذين يسألونه ﴾ .. ؟؟

وتأتيه الخاطئة ، يزفها الكهنة والجالدون فيلقى عليها
نظرة طيبة أسية يلمح خلالها الضعف الإنساني الكامن فى
كل إنسان .. ثم يرفع بصره صوب غلاظ الأكباد ، قساة
الضمائر ، وقد ملأوا أيديهم بالحجارة الحادة تاهباً
لرجمها ، فيقول لهم كلماته الماثورة :

﴿ من كان بلا خطيئة ، فليرمها
بحجر ﴾ .. !

وعلى الرغم من هدوء كلماته هذه ، فقد نفذت إلى
أفئدتهم كرصاص مقذوف ..
وتمثلت لهم خطاياهم .. وإذ احتواهم ذهول وخزى ..
التفت هو نحو المرأة وسألها :

﴿ هل دانك أحد ﴾؟؟

وأجابته :

كلا ، يا معلم .

فيقول لها ، وهو يخاطب فيها الضمير البشرى القابع
المفدوح تحت وطأة إحساسه المذل بالخطأ :

﴿ ولا أنا أدينك .. اذهبى ،

ولا تخطئى ﴾ . !!!

إنه موقف جدير بابن الإنسان .. ابن الإنسان الذى جاء
ليخلص الأنفس لا ليهلكها ..

وأولئك المدفونون أحياء تحت ركام الخوف ، والهول ،
والخطيئة جديرون بيده الحانية الرحيمة ، تأخذ بهم فى
رفق كبير إلى إله طيب ، بر ، كريم ..

وليس معنى موقفه هذا إباحة الإثم ..

أبدا .. فهو لا يفتأ يذكر بحق أنفسنا علينا ، بل ويعلمنا
أن الخطيئة نفسها جزء من الأغلال التى يرسف فيها
وجودنا ، وعلينا ، ونحن نحررها ، أن نقطمها عن
نزواتها .

﴿ ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم

كله ، وأهلك نفسه أو خسرها ﴾ ..

لكنه ، وهو يدعونا لتحرير أنفسنا من الإثم ، إنما يفعل
هذا بروح أخ ودود .. لا جَلَاد كَنُود ..

لكأنه ، وهو يرمق « الخاطئة » بنظرته الوديعه ، كان
يسأل نفسه :

إذا نحينا عن هذه ، وصف « الخاطئة » .. فماذا
يبقى .. ؟

يبقى الإنسان .. !!

حسن هذا .. وكل البشر إذن كذلك .
وإذن مرة أخرى ، فلا ينبغي أن نسحق أرواحهم
وضمائرهم ووجودهم باللوم القاتل .. إنما علينا أن نوقظ
فيهم « الإنسان » ليطرد عنهم « الشرير » !!..
ذلك من هاج ابن الإنسان الذي لم يأت ليطبب الأصحاء .
بل ليعالج المرضى والذي لم يأت ليدعو « أبراراً للتوبة » ،
بل خطّائين » .

والآن نشهد موقفاً آخر له ، فتغمرنا حرارة مودته ،
ودفء حنانه .. ونجد فيه الأب ، والأخ ، والصديق .
والقلب الكبير .. الكبير .. السَّمْح . السَّمْح .

ذات يوم دعاه أحد الفرّيسيين إلى طعامه ، وإذ هو
جالس ينتظر الطعام . اقتحمت عليه الدار في اضطراب
وتعثر . امرأة

لم تكد تبصره حتى آكبت على قدميه تغسله
بدموعها . ثم تجففهما بشعر رأسها . ثم تعود فتضمخه
بعطر كان معها .

ويجيء الفرّيسى من داخل داره ، فيرى المشهد
ويبصر المرأة فيعرفها .. إنها واحدة من بائعات اللذة
والهوى ..

ويفرك يديه مسروراً ، فهذه فرصة جدّ طيبة لاختبار
المسيح ، فإن يك مسيحاً حقاً ، فسيعلم الآن ، من هذه
التي تلمسه ، وتقبّل قدميه .

ويقرأ المسيح حديث نفسه هذا .. ويلقى عليه ، وعلى الدنيا كلها درساً ، موجهاً الحديث إلى تلميذه « سمعان » فكان ساعتئذ معه :

﴿ يا سمعان .. ﴾

﴿ عندي شيء ، أقوله لك ﴾ .

﴿ قل ، يا معلم ﴾ .

ويستأنف المعلم العظيم حديثه :

﴿ كان لِمَداين مديونان ﴾ .

﴿ على أحدهما خمسمائة دينار .. ﴾

وعلى الآخر خمسون . وإذ لم يكن

لهما ما يوفيان ، سامحهما جميعاً ﴾ .

﴿ فقل : أيهما يكون أكثر حباً

له ؟؟؟ ﴾

ويجيب « سمعان » :

﴿ أظن ، الذي سامحه بالأكثر ﴾ .

ويقول السيد المسيح :

« بالصواب حكمت » .

ثم يلتفت شطر الإنسان ، شطر المرأة الخاطئة .. التي

ذهب عنها « الشرير » ، وَبَقِيَ فِيهَا « الإنسان » ، ويقول لها

وعلى شفتيه الودودتين ابتسامة كضوء الثَّجَر :

﴿ إيمانك ، قد خلّصك ﴾ ..

﴿ اذهبي بسلام ﴾ .. !!!



أى قلب ذكى ، كان يحمله يَسُوع . ؟؟
وأى برّ بالضمير الإنسانى أسخى من هذا البر . ؟؟
أى صداقة ، تشدُّ أزر الإنسان فى ضعفه ، أوفى من هذه
الصداقة . ؟

وموقف آخر ، يُعمق به هذا الفهم فى وعي الناس ،
ويطالبهم أن ينتهجوه ، ويتخذوا منه سلوكاً .
يسأله « بطرس » :

« كم مرة يخطئ إلىّ أخى ، وأغفر له ؟ هل إلى سبع
مرات ؟ »
ويجيبه المسيح :

﴿ لا أقول لك إلى سبع مرات ، بل إلى
سبعين مرة ﴾ .

وعلى طريقته العذبة السديدة ، يضرب مثلاً ، فيقول :
﴿ يشبه ملكوت السموات ، إنساناً
ملكاً ، أراد أن يحاسب عبيده .. فلما
ابتدأ فى المحاسبة ، قدم إليه واحد
مليون عشرة آلاف وزنة .. وإذ

لم يكن له ما يوفى ، أمر سيده أن يُباع
هو ، وامرأته ، وأولاده ، وكل ماله ،
ويوفى الدين . . ﴿

﴿ فخرَّ العبد وسجد قائلاً : ياسيد ،
تمهل علىّ ، فأوفيك الجميع ﴾ .
﴿ فتحنن سيد ذلك العبد ، وأطلقه ،
وترك له الدين ﴾ .

﴿ ولما خرج ذلك العبد ، وجد واحداً
من العبيد رفقائه ، كان مديوناً له بمائة
دينار ، فأمسكه ، وأخذ بعنقه قائلاً :
أوفنى مالى عليك ﴾ . .

﴿ فخرَّ العبد رفيقه على قدميه ، وطلب
إليه قائلاً : تمهل علىّ فأوفيك
الجميع . . فلم يردّ ، بل مضى وألقاه
فى سجن حتى يوفى الدين ﴾ .

﴿ فلما رأى العبيد رفقائه . . ما كان ،
حزنوا جداً ، وأتوا وقصّوا على سيدهم
ما جرى ﴾ .

﴿ فدعاه حيثنّد سيده ، وقال له : أيها

العبد الشرير ، كل ذلك الدين تركته
لك ، لأنك طلبت إليّ .. أفما كان
ينبغي أنك أنت أيضاً ، ترحم العبد
رفيقك كما رحمتك أنا ؟ !

وهكذا يقيم المسيح بين الناس تكافلاً وتضامناً ، ضدّ
الآثام ، التي هم فيها سواء ، وشركاء .. وضد وطأتها
الضاغطة على الضمير البشرى ، حين تتخذ أداة تحقير
له ، وإذلال :

﴿ إن فرح السماء بخاطيء واحد
يتوب ، أكثر من تسعة وتسعين باراً ،
لا يحتاجون إلى توبة ﴾ ! .
﴿ اغفروا إن كان لكم على أحد شيء .
لكي يغفر لكم أيضاً أبوكم الذي في
السموات ﴾ .

وماذا صنع المسيح بثانية الأثافي التي كانت تدغدغ
الضمير الإنساني وتؤوذه .. وهي حرمانه من حق الشكوى
والمعارضة ؟ !
لقد كان موقفه من هذه عظيماً وحاسماً ، مثل مواقفه
جميعاً ..

ولقد راينا من قبل ، كيف واجه رؤساء الكهنة ،
والكتبة ، والفريسيين ، أمام الحشود من الناس .. وكيف

سخر منهم ، وناداهم : يا أولاد الأفاعي .. وهم الذين
تعودوا تقديساً مطلقاً ، أو شبه مطلق ...!!
لقد كان المسيح بخطبته تلك ينادى الضمير السجين
إلى تمرد مشروع .

وحين كان يأخذ طريقه إلى الهيكل ، ووجد الباعة ،
والصرّافين ، والكهّان المحترفين ، يملأون رحابه .. أقبل
عليهم ، يكفأ موائد الصيارفة ، ويبعثر سلعهم ، وينادى :
﴿ مكتوب ، إن بيتى بيت صلاة ، وأنتم

جعلتموه مغارة لصوص ﴾ !

ثم يهز رأسه فى غيظ مضطرم ساخر ، لكنه وديع ،
ويقول :

﴿ يا أولاد الأفاعي ﴾ .. !!

وهو يرسم لتحرير الضمير نهجاً قوياً حين يقول :
﴿ تعرفون الحق .. والحق
يحرركم ﴾ .

الحق يحررنا .. ؟

ما أوعاها عبارة ، وما أغناها حكمة .

ليس الهوى ، ولا القوة ..

إنما هو الحق وحده ، القادر على أن يهب الإنسان
تحرراً صادقاً ، رشيداً ، لا زيف فيه ولا تأويل .

وأمام الحق ، لا يجوز لشيء ما ، أن يقف ، ويتشامخ .

ولسوف يضرب المسيح لهذا مثلاً من سلوكه حين يتحدّى عقيدة « السَّبْت » تحدياً أخاذاً .. وبذلك يبعث « حق المعارضة » بعثاً عظيماً ويهب الضمير البشرى خلاصاً أكيداً .

قرأتم فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب ، أن اليهود تركوا « أورشليم » تسقط فى أيدي الغزاة السلوقيين .. عندما اختاروا لمهاجمتها يوم سبت .. وأثر اليهود سقوطها على أن يقاتلوا يوم السبت ، حيث تمجّد البطالة وتقدس الراحة .. !

وهذا ، يشير إلى مدى ما كان لخرافة السبت فى أفئدتهم وفى عقولهم من رسوخ وولاء ..
إنهم - يوم السبت - لا يكرزون ، ولا يعالجون .. ولا يعملون عملاً .

فإذا جاء من يتخطى هذا كله ؛ فيكّرّزهم يوم السبت ، ويعظ ويداوى .. فقد ضرب التقاليد الضّارية ، ضربة قاضية .. وفتح للضمير المفدوح بثقلها الجاثم ، وجوّها الخانق الأسن ، نافذة على الأفق المشرق ، والهواء النقى .

ولقد فعلها المسيح ، ولم يقم وزناً لثورة الكهان ، والفرّيسيين ، بل جعلهم بسخريتهم الذكية صغاراً مبهوتين .. !

جاءته امرأة فى يوم سبت تعاني علة موجعة ، فمنحها المسيح من روحه ما غاليه به مرضها ، ووجدت بسببه البرء ، والعافية .

ووجدوها رئيس المجمع فرصة مواتية ، ليشن على
المسيح هجوماً « مقدساً » .. !

واقترب منه ، والناس يسمعون ، وقال له :

﴿ كيف تبريء في يوم السبت ﴾ .. ؟

واراد المسيح ان يلقنه درساً لا يفيق منه ، فقال موجهاً
الخطاب إلى مقامه الكهنوتي الرفيع .. !!

﴿ يأمرائى ﴾ ..

﴿ أفئن سقط حمارك في بئر يوم

السبت ، أنقذته وأبرأته ﴾ ..

﴿ وحين يمرض إنسان ، تتركه في علته

إلى يوم الأحد ﴾ .. ؟؟ !!

اهناك كلام يقال في هذا المقام ، أعذب ، وأمتع ،
وأروع ، وأنفذ من هذا الكلام ؟ .

ومرة أخرى ، أرادوا أن يلوموه ، لأنه يكرز في يوم
سبت .. فأجاب بعبارة الجامعة :

﴿ إنما خلق السبت من أجل الإنسان ،

ولم يجعل الإنسان من أجل

السبت ﴾ .. !

إن الإنسان عند المسيح . هو الشمس التي تدور حولها
قوانين المجتمع وتسير ..

وإن له عنده لمكانة عظمى ..

﴿ الحق أقول لكم ﴾ ..

﴿ إن من قال لهذا الجبل ، انتقل ،

وانطرح فى البحر .. ولا يشك فى

قلبه .. بل يؤمن أن ما يقوله يكون ..

فمهما قال ، يكون له ﴾ .. !!

وهو إذ يضع عن الضمير الإنسانى بذخ السلطان ،

وضراوة التقاليد .. وإذ يقيمه فى مكان الند والنظير لكل

سلطة أخرى على الأرض ، فيناقش كما ناقش المسيح ،

ويعارض مثلما عارض ، ويعتزّ بالحق ويتبعه ، كما اعتزّ

المسيح به وتبعه ..

هو إذ يفعل هذا ، لا ينسى أن يوصى تلامذته الذين

يتمثل فيهم الضمير الناشئ المستيقظ ، ألا يتحولوا يوماً

ما ، إلى سلطة تعوق الضمير . وتكبله من جديد

بما تنتهجه من غطرسة ، وضعف ، واستعلاء . إستمعوا

له ، وهو يقول لهم :

﴿ أنتم تعلمون أن الذين يحسبون

رؤساء الأمم ، يسودونهم .. وأن

عظماءهم ، يتسلطون عليهم ..

فلا يكون هذا فيكم ﴾ ..

﴿ بل من أراد أن يصير فيكم عظيماً ،

يكون لكم خادماً ﴿ ..
﴿ ومن أراد أن يصير فيكم أولاً ، يكون
للجميع عبداً ﴿ ..
﴿ لأن ابن الإنسان أيضاً ، لم يأت
ليُخدَم ، بل ليُخدَم ، وليبذل نفسه فديةً
عن كثيرين ﴿ ..



وأما الوصاية التي كان يفرضها على الضمير الإنساني
جماعة المنتفعين بالتقاليد الغريبة ، والأساطير الضحلة ،
فقد ألغاهما المسيح بعبارة حاسمة .. وذلك حين قال واحد
من الجمع .

يا معلم ، قل لأخي يقاسمني الميراث ..
فإذا هو يجيب :

﴿ يا إنسان ، من أقامني عليكما
قاضياً ، أو مقسماً ﴿ .. ؟ !

إنه موقف يغنى عن مواقف .. وإنها عبارة تمثل
دستوراً .

إن المسيح بها ، يسلم الضمير وثيقة رشده ويدعوه
لمواجهة مسؤولياته ، بعيداً عن كل وصاية متطفلة ..



والآن ، إلى موقفه من الآفة الثالثة ، التي كان الضمير
الإنسانى يعانيتها فى البيئة التى جَلجلت فيها كلمات
روح الله .

هذه الآفة ، هى العنصرية .
كان « شعب الله المختار » " يعيش كما قلنا من قبل ،
داخل عقده هذه ، منطويا على نفسه . وعلى نواياه
الرديئة جداً ، ضد الناس جميعاً
ولكن ، قبل أن نستطرد فى حديثنا هذا يحسن ان نعرف
علاقة الضمير بالعنصرية .

لقد ذكرنا حين بداننا الحديث عن الضمير الإنسانى
ما نعنيه بهذا الضمير .
وقلنا إننا نعنى به « الإنسان فى وجوده المحبب
والوجود الحقيقى للإنسان ، يعنى التعبير الكامل
عنه ، وفتح الطريق أمام طاقاته . وإمكانياته
والإنسان .. هو : الإنسان
لا قيمة لأختلاف اللون ، وأختلاف اللغة . وأختلاف
القوم .

وإذا كان الناس خلال تطورهم ، قد عاشوا امما .
وشعوبا فإن شيئاً اسمى من ذلك يُظلمهم . ويحتويهم
داخل إطاره ، ويناديهم إلى نفسه .. هو الإنسانية .
والعائلة البشرية ، حقيقة موجودة منذ وجد الإنسان ..
ولكن ظهورها كواقع يتطلب ظروفاً .. على الإنسان أن يعمل
من أجل توفيرها ، ومن أجل تعجيل ميقاتها .. وفى هذا

يتحقق المفهوم الصحيح لاسمه ، ويتبدى الوجود الحقيقي له .

وإذن فكل تضليل له عن هذا الهدف ، وكل تقاعُس به عن تلك الغاية ، يعتبر انتزاعاً له من وجوده الحقيقي .. وبالتالي فهو انتهاك لحقوق الضمير الإنساني الذي عرّفناه من قبل بأنه « الإنسان في وجوده الحقيقي » ..

ونعود لحديثنا الأول .. حيث كنا نقول إن اليهود كانوا يعيشون في « قوقعة » معتمة ، من عنصرية حالكة . وتحرير الضمير الإنساني ، يتطلب تمزيق هذه القوقعة ، وتسريح هذه العنصرية .. أو بتعبير آخر .. فإن هدم هذه العنصرية يعتبر عملاً جليلاً ، ونافعاً بالنسبة لتحرير الضمير البشري

فماذا فعل المسيح تجاه هذا الأمر ؟

اقرأوا .. واعجبوا ..

كان يكلم الجموع يوماً ، وإذا أمه وإخوته ، يجيئون ، ويذهب من يقول له : أمك وإخوتك يريدون أن يتحدثوا إليك .

فيجيب :

﴿ من هي أمي .. ومن هم

إخوتي ﴾ .. ؟؟ !

ثم يبسط كفه المضيئة صوب تلامذته ، ويقول :

﴿ ها ، أمى ، وإخوتى .. لأن من
يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات ،
هو أخى وأختى وأمى ﴾ !!



ويسلب من اليهود المفهوم الزائف المزور ، الذى
يبررون به عنصريتهم المسعورة .

لقد كانوا يعتمدون على وعد يزعمون أن الله أعطاه
لإبراهيم .. ويفسرون هذا الوعد تفسيراً يرضى غرورهم ،
وعنصريتهم ، وطمعهم فى احتلال الأرض كلها .. !
كما كانوا يتبذخون على الناس بأنهم أبناء إبراهيم ..
فانظروا ، كيف يجردهم من هذه ، ويتركهم عُراة .. !

﴿ يا أولاد الأفاعى ﴾ ..

﴿ لا تقولوا لنا إبراهيم أباً .. لأننى أقول
لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه
الحجارة أولاداً لإبراهيم ﴾ ..

﴿ والآن .. قد وضعت الفأس على
أصل الشجرة ﴾ .

﴿ فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً ،
تقطع وتلقى فى النار ﴾ .. !

يا لصدق الكلمات ، ويا لروعتها ..

إن انتسابكم لإبراهيم لا يفيدكم شيئاً ما لم تكونوا مثله
صالحين .

وليس هناك بشرٌ أفضل من بشر .
ولكن ، هناك شجر يعطى ثمراً جيداً فيسقى ، ويزدهر ..
وشجر يعطى ثمراً رديئاً ، فهذا له الفأس ، تجتثّه ،
وتبيده .

فيا أيها اليهود ، تحولوا إلى شجرة طيبة ، إذا أردتم
أن تعيشوا ، وتحيوا ..

أرأيتم .. ؟؟

.. أرأيتم إلى « يسوع » العظيم ، وهو يكافح العنصرية ،
ليحرر القمير الإنسانى من ربقتها .. ؟

الم يكن الدرس فى أوانه ، وفى مكانه ، حين قاله
وألقيه .. ؟

واليس ، يجيء فى أوانه مرة أخرى ، حين نرده
اليوم ، ونرويه .. ؟؟ !

.. وفى مثال عذب فائن حكيم ، يخرج الناس من قوقعة
العنصرية ..

﴿ ليس أحد يوقد سراجاً ، ويغطيه

بإناء ، ويضعه تحت سرير ﴾ ..

﴿ بل يضعه على منارة ، لينظر

الداخلون النور ﴾ .. !

كذلك الأمم ، والشعوب ..

كل أمة تملك نوراً .. تملك علماً .. تملك ثروة .. تملك
ذكاء ليس من حقها أن تنطوى عليه . بل تضعه على
المنارة .. تقدمه في غير مَنْ ، وفي غير أذى للبشرية
كلها .. فنحن جميعاً عائلة واحدة فوق هذا الكوكب
الرحيب .

ويوجه للعنصرية ضربة مباشرة في حكمة يرويها ،
ومثل يضربه .. وذلك حين سأل سائل : مَنْ قريبى .. ؟؟
فأجاب :

﴿ كان رجل مسافراً من أُورشليم ، إلى
أريحا .. وكان الطريق محفوفاً بأخطار
اللصوص ، وقطاع الطرق .. فنصحته
زوجته بالتريث حتى يجد من يرافقه في
سفره .. وإذ ذاك انبرى ابنه الصبي
يقول : إن والد صديق له يزمع السفر
في نفس الطريق ﴾ ..

﴿ وكان الآخر ، سامرياً ، فلم يكذ
الأب يعلم هذا ، حتى انتفض كمن
لدغته عقرب ، وصاح بابنه : كيف
تصادق ابن سامرى نجس .. ؟
أما تعلم أن السامريين تصاهروا مع

العجم منذ مئات السنين . ؟ إن فعلتك
لو عُرفت ، لأثرت في عملي
وتجارتى ﴿ .

﴿ ورفض الرجل اقتراح ابنه الصغير ،
وسافر منفرداً . فهاجمه اللصوص في
الطريق . وسلبوه ماله وثيابه . .
وأصابوه بجرح ، ثم تركوه بين حي
وميت ﴾ .

﴿ ومرب به كاهن ؛ فرآه . . لكنه تغاضى
عنه . ومضى في طريقه ﴾ . .
﴿ ثم مرب به رجل من عشيرته ، فتجاهله
وواصل سيره ﴾ . .

﴿ وأخيراً ، مرب به « سَامِرَى » ، فعطف
عليه ، وتوقف ، فغسل جراحه ودهنها
بالزيت . ثم أركبه على دابته ، وأوصله
إلى فندق ، وأوصى صاحب الفندق أن
يعتنى به . . ثم نفحه مالا كدفعة أولى ،
على أن يتقاضاه بقية النفقات فيما
بعد ﴾ . .

قصّ المسيح هذه القصة ، وضرب هذا المثل ، ثم
أتبعه بسؤال : « أى هؤلاء ، يكون قريباً للمسافر » . ؟
فأجاب الرجل :

﴿ من صنع معه الرحمة ﴾ .

هناك قال المسيح :

﴿ إذن ، اذهب ، وافعل

هكذا ﴾ !! ..

لقد جمع المسيح فى هذا المثل كل ملامح العنصرية
الشائنة .. كما ساق فى نفس المثل ، العنصرية إلى
معركة خرجت منها خاسرة منهوكة .. إن يهود « أورشليم »
كانوا فى قطيعة مع السامريين ، لأنهم أصهروا إلى
العجم . !

هنا يكشف المثل عن إيغالهم فى العنصرية .
وكانوا - أى يهود أورشليم - يحاربون من بنى جلدتهم
كل من يعامل السامريين ، أو يخالطهم ..
ولكن ، حين وقع الرجل قريسةً لقطاع الطريق ، الذين
ربما كانوا يهوداً من بنى جنسه .. مرّ به « كاهن » .. فلم
يهتم بأمره .. !

ومر به « سامرى » .. أى واحد من الذين يمقتهم
ويقاطعهم ويعتبرهم رجسا ونجاسة .. فسارع إليه ،
وغسل جراحه ، ودهنها بالزيت ، ثم حمّله على دابته إلى
فندق .. حيث استأجر له فيه مكاناً طيباً مريحاً .. !!
هذا ، هو القريب ، والصديق إذن ..

الذى يفعل الخير ، ويبذل العون ، مهما تكن جلدته ..
مهما يكن معدنه وقومه ..
وهكذا يزكى المسيح ، الإخاء الإنساني ، ويحطم سدود
العنصرية المنحرفة ، المتبربرة .
فالناس جميعهم لدى المسيح إخوة .. وإخوة ضعاف ،
يستحقون العون ، وبذل ذات اليد ، والنفس .. وإنه
ليصوغ هذه الوجهة فى نيا جليل ، فيقول :
﴿ .. ومتى جاء ابن الإنسان فى
مجده ، وجميع الملائكة القديسين
معه .. فحينئذ يجلس على كرسى
مجده .. ويجتمع أمامه جميع
الشعوب .. فيميز بعضهم من بعض -
أى يعزل صالحها عن فاسدها ﴾ ..
﴿ ثم يقول الملك للذين عن يمينه :
تعالوا يا مباركى أبى .. رثوا الملكوت
المعد لكم منذ تأسيس العالم .. لأنى
جعت فأطعمتمونى .. عطشت
فسقيتمونى .. كنت غريباً
فأويتمونى .. عرياناً فكسوتمونى ..
مريضاً فزرتمونى .. محبوساً فأتيتم
إلى ﴾ .. !!

﴿ فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : متى
رأيناك جائعاً فأطعمناك .. ؟ أو عطشاً
فسقيناك .. ؟ ومتى كنت غريباً
فآويناك .. ؟ أو عرياناً فكسوناك .. ؟
ومتى رأيناك مريضاً ، أو محبوساً فأتينا
إليك ﴾ .. ؟؟

﴿ فيجيب : الحق أقول لكم .. بما
أنكم فعلتموه بأحد إخواني هؤلاء
الأصاغر ، فبي فعلتم ﴾ .. !!

لم يقل بما أنكم فعلتموه بقومى .. بشعبى .. بيهود
أورشليم ..

بل قال : بأحد إخوانى :
وإخوانه ، كما قال من قبل ، هم الذين يعملون مشيئة
الرب . بغضّ النظر عن جنسيتهم ، وأرؤمتهم ..
ومشيئة الرب ، أن يعيش الناس إخواناً .. أحراراً ..
خيرين .. سعداء ..

هذا - فى إيجاز - هو موقف المسيح من الضمير
الإنسانى .

فهل نتجه الآن إلى محمد رسول الله ، لنطالع موقفه من
الضمير الإنسانى أيضاً .. ؟؟
وإنه لموقف باهر ، وعظيم .



﴿ هَلَّا شَقَّتَ عَنْ قَلْبِهِ ﴾ .. ؟

لو كنّا هناك ، ومحمد رحمة الله للعالمين ، يلقي هذه العبارة ، لرأينا مشهداً عجيباً .. !
ولرأيناه ، وهو ينشئ لحقوق الضمير الإنسانى « برج حراسة » شاهق الارتفاع ، محكم النظرات ..
لقد ذكرنا من قبل أن الضمير كان مفدوحاً بوطأة آفات ثلاث :

- المساومة والتخويف .
 - الإذعان الذى يحظر عليه النقاش والمعارضة ، ويُلزمه بالخضوع لوصاية منهكة ..
 - العنصرية التى تحرمه من تحقيق وجوده الصحيح ، داخل إزاء إنسانى رحيب .
- وأمام هذه الطواغيت الثلاثة ، التى رأيناها - قبلاً - كيف أبلى المسيح فى مكافحتها ، وقف محمد ليجهز عليها ..

ولسوف يمضى كما مضى أخوه عيسى .. يرسل فى مثل سنا الفجر ، تعاليمه ، ويدعو فى رفق لاحترام الضمير ..
وترك الإنسان يحيا داخل وجوده الحقيقى ..
وحين يتناول الشر أمامه ، ويتشامخ ، فلن يدعه يتمكن منه ويعتاق زحف النور الذى معه .. بل سيلقاه بالجواب الأشد .. ويضع رأسه العنيد تحت حد السيف .
وحتى حين يتمثل هذا الشر فى قوى عارمة رهيبة ،

لإمبراطوريتين كُبرَيَّتين ، كِفارس ، والروم .. تواصل دعوة
محمد زحفها لمطاردته .

ومن خلال هذا كله .. التعاليم المسالمة ، ومعارك
المقاومة .. تبرز حقوق الضمير على نحو جليل وفَذَّ .
﴿ ولنبداً من البداية ﴾ ..

كان الناس يعبدون الأصنام ، ويستقسمون بالأزلام ،
ويزجرون الطير ، ليستنبطوا منها فى سذاجة أمر
مستقبلهم ، وخفايا غيوبهم .

وجاء محمد ليحرر هؤلاء الناس .
ماذا فيهم سيحرره .. ؟

سيحرر عقولهم من الخرافة ..

ويحرر وجداناتهم من الإفك ..

وينقذ وجودهم من الضياع ..

وينشر دعوته ، ويبلغ رسالة ربه .. ويصير له أصدقاء
مؤمنون ، وأعداء مكذبون .

١ وذات يوم ، يجيئه أحد أصحابه مستأذناً فى طرد واحد
يعتقد أنه منافق يتظاهر بالإسلام ليؤذى المسلمين ،
ويخفى فى نفسه مَوْجِدَةً وشرّاً ..

وتقدم من الرسول يعرض رأيه .. طرد هذا الرجل من
صفوف الجماعة .. لأنه يضمّر لها شرّاً .. ؟؟

يضمّر شرّاً ؟ !

لكن ، أىّ تطفل على سرائر الناس هذا .. ؟

* * *

وأية رقابة على الضمير الذى جاء محمد ليساعده على
النهوض . ؟

ويسأل الرسول صلى الله عليه وسلم صاحبه :
— ﴿ هلا شققت عن قلبه ﴾ ؟ !

ويعود الرجل فيتكلم :
يا رسول الله ، إنه يخفى فى نفسه غير ما يعلن .
ويجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم .
— ﴿ إن الله لم يأمرنى أن أشق صدور
الناس لأرى ما فيها ﴾ . !!

عبارة وجيزة ، صيغت فى بساطة ويُسَر ، لكنها تحمل
مضموناً يشكل دستوراً هائلاً ، وحافلاً .. يحمى الضمير ،
ويضع حرите بمنأى من التقحم والافتيات ..
وفى هذه البداية المشجعة ، تتمثل نقطة انطلاق
الضمير فى شريعة محمد ..
فهذه الرعاية لحرمة ، والتقدير لحرية ، لا يُمنحان
تدليلاً له ، ولا إفلتاً لزمame .. بل ليتعود حمل المسؤولية
واختيار المصير ..

﴿ يا فاطمة بنت محمد ﴾ ..
﴿ اعملى ، فإنه لا أغنى عنك من الله
شيئاً ﴾ ..



﴿ من يعمل سوءاً يُجْزَ به ﴾ ..



﴿ ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ ..

حين جاء محمد ، وجد الناس الذين بدأ بينهم دعوته ،
يتعشرون في وجود زائف ، ويُمارسون حياة مزورة ..
وما داموا ، لا يعيشون في وجودهم الحقيقي ،
فالضمير الإنساني ، إذن يعاني محنة ويترنح إعياء ..
ولقد كان ذلك حاله ..

كان مستعبداً لأساطير الأولين ، ومنحنياً دائماً في مذلة
وغفلة ، أمام حجارة مرصوفة ، تسمى الآلهة .. !!
وكان مجرد وجود صوت يقول : لا .. بمثابة إطلاق -
أكيد - لسراح هذا الضمير ، ودعوة له ليمارس وجوده ،
وحرية ..

ولقد جاء الذي سيقول : لا ..
وهو : محمد رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ..
وسيكون التاريخ هناك ، ينتظر سماعها منه ، ليبدأ من
فوره شوطاً طويلاً ، ممعناً ، جليلاً ، يطوف خلاله بمعظم
الأرض ، حاملاً دعوة محمد .. معلناً نهاية الوثنية ..
ساحقاً بقدمه ، أو طاوياً بيمينه ، أصنام العرب ، ونار
الفرس ، وعبادة قيصر ، وهاتفاً بسيادة الإنسان على
الأرض ..

فليس فيها بعد اليوم أكذوبة يعبدها ، أو قوة يسجد
لها .

الذين يعبدون « قيصر » لن يعبدوه بعد اليوم .
والذين يسجدون للنار ، لن يسجدوا لها بعد اليوم .
والذين يطوفون حول الأصنام ، لن يطوفوا بعد اليوم .
وستتقطع جميع الخيوط غير المنظورة ، التي تربط
هؤلاء ، وأولئك بمعبوداتهم الباطلة ، وألهتهم الزائفة .
وسيقف الإنسان فوق الأرض سيداً لا عبداً .. تدفعه إلى
غايته حركة جديدة نابعة منه ، لا من أصنام ، ولا من
أزلام ، ولا من قيصر ، ولا من كاهن ..
وشَطَرَ السماوات العلى .. سَيُيَمَّمُ وجهه ، حيث إله
آخر .. إله واحد .. إله حق ..
لا ينام .. ولا يمرض .. ولا يموت .. ولا يحقد ..
إله ليس قيصراً .. ولا حجراً ..
« سئل الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عنه ذات
يوم » :

كيف رأيت ربك .. ؟؟

فأجاب :

﴿ نور ، أنى أراه ﴾ !! ..

أجل .. هو نور السموات والأرض . هو قوة عالية ،
عادلة ، تملأ الكون ، وتنبت في الكائنات جميعاً ، انبثاثاً
عظيماً مسيطراً ..

وإننا لنكاد نراه في أنفسنا . في الشمس .. في مياه
النهر .. في النبات الأخضر .. في اليبس والجمد .. في
الحركة والسكون .. في السماء .. وفي الأرض ..

يسأل الرسول جارية : « أين الله » .. ؟
فتجيبه : فى السماء ..
فيرضى عن جوابها ، ويقول : إنها مؤمنة ..
ولكنه فى موطن آخر يقول :
﴿ إذا كان أحدكم يصلى ، فلا ييزق
أمامه ، فإن الله تجاهه ﴾ ..

ويقول مرة ثالثة :
﴿ لو ألقى أحدكم دَلْوَه فى بئر ، لوقع
على الله ﴾ ..

حتى ليكاد يتركنا نحسب أن الله هو الحياة .. أو هو
رُوح الحياة ، فهو أمامك ، وعن يمينك ..
هو فى الشمس الطالعة ، وفى الماء الجارى .. وفى
الأفق المشرق ..
﴿ ليس كمثله شىء ، وهو السميع
البصير ﴾ ..

ألم يكن محمد ببُشراه هذه .. بفهمه هذا الله .. يطلق
الضمير الإنسانى من قيود يرسُف فيها أمام قيصر يعبد ..
أو صنم يذلُّ له .. أو نار يسبِّح بحمدها ؟!
ألم يخرج من دائرته المغلقة .. ويقذف به إلى الجهات
الأربع .. يحلِّق فى رحلة صاعدة ... ؟؟؟
عندما يأخذنا من أمام الأصنام ، ومن بين أيدي
القياصرة المعبودين ، ويقول لنا :

إذا كنتم تريدون الله ، فانطلقوا صوب الحياة ..
﴿ أينما تولوا .. فَثَمَّ وجه الله ﴾ .. !!



﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا - هو -
رابعهم ولا خمسة إلا - هو - سادسهم ،
ولا أدنى من ذلك ، ولا أكثر ، إلا -
هو - معهم ﴾ . !

ماذا نفهم من هذه الآيات .. ؟؟
أما أنا ، فأفهم أنها تؤدي دوراً جليلاً ، غاية الجلال في
تحرير الضمير الإنساني من سخرية الألوهية الزائفة التي
كانت تُذَلُّه وتُضِلُّه ، وتفسد عليه رؤاه ..

ولنعد إلى الحديث الذي بدأنا به حديثنا هذا ..
رأينا ، كيف أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه
لم يجيء ليشق صدور الناس ، ويتجسس على سرائرهم ،
ونواياهم ..

إنه إذن يصون حرية الضمير ، ويعلن حقوقه ..
ويصون حرية التفكير ، لأن التفكير عمل من أعمال
السَّريرة .. فنحن نفكر في أنفسنا ، ومع أنفسنا ..
ولا يطلع على تفكيرنا أحد ، إلا حين نعبر نحن عنه بأية
وسيلة من وسائل التعبير ..

وحين نحمل ضمائر حرّة .. أى حين نحيا في وجود
حقيقي غير زائف ولا مبتسر .. فإن تفكيرنا بالتالي ، يكون
حرّاً ..

ويكون سديداً .. ويكون منشئاً وعظيماً .
ماذا يفسد الضمير ، ويفقده حريته وسيادته .. ؟
إنهما : الترغيب الباطل ، والترهيب الجائر ..
أى : المساومة ، والخوف ..
نفس المشكلة التى واجهت سيدنا المسيح من قبل وهو
يعالج مأساة الضمير .
ولسوف يُجهزُ عليها سيدنا « محمد » فى إبداع ، وفى
إعجاز ..
(أ) ليس بين الله ، والناس ، وسطاء ..
(ب) لأنه ليس أحد أحق بالوساطة من أحد ..
(جـ) لأنه لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على
أسود ، ولا تمايز أبداً بين الناس .
(د) والامتياز الوحيد ، إنما هو للعمل الأصدق ،
والأصح ، والأنفع .
(هـ) فإذا كنت صاحب عمل صادق ، صالح ، نافع ..
فيد الله فوق يدك ، من غير أن تطلبها ..
(و) وإذا لم تكن .. فليس ثمة من يمنحك جواز المرور ..
لأن « جوازات المرور » كلها لدى واحد لا يتكرر ،
ولا يحابى . ولا ينقض سنته وقوانينه ..
هو الله ..
وإذن ، فليذهب السماسرة جميعا إلى الجحيم إن
شاءوا ... !!!
لقد انقضَّ سامرهم وأمحلَّت إلى الأبد ، السوق التى

طالما سرقوا فيها القلوب والجيوب ..

إن محمداً يتكلم .

إنه يذيع نعي السماصرة والوسطاء .. فاسمعوا رَنيته

العذب ، وقوله الصادق .

﴿ إذا سألت ، فاسأل الله ﴾ ..

﴿ وإذا استعنت ، فاستعن بالله ﴾ ..

﴿ واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن

ينفعوك .. لم ينفعوك إلا بشيء ،

كتبه الله لك ﴾ ..

﴿ ولو اجتمعوا على أن يضروك ،

لم يضروك إلا بشيء كتب به الله

عليك ﴾ ..

﴿ واعلم أن النصر ، مع

الصبر ﴾ .. !!



﴿ اعملوا ﴾ ... !

﴿ فكلُّ مُيسَّر لما خُلِقَ له ﴾ ..

ثم يُركز المسؤولية في يد الضمير :

﴿ إن الله ، لا يغير ما بقوم ، حتى

يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

﴿ من اهتدى ، فإنما يهتدى لنفسه ،
ومن ضلَّ ، فإنما يضلُّ عليها ﴾ ..
﴿ ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ . ؟



﴿ الحق من ربكم ﴾ ..
﴿ فمن شاء فليؤمن . ومن شاء
فليكفر ﴾ .. !!



﴿ وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يحمل
منه شيء ، ولو كان ذا قربى ﴾ .. !!
أى عظمة ، وأى صدق ، وأى خلاص من وطأة
الوساطة ، والسَّمْسرة ؟؟
وأى مواجهة للضمير الإنسانى بمسئوليّاته ، أوضح
من هذه المواجهة .. ؟؟
إن أى إنسان تُثْقَلُه أخطاؤه وذنوبه .. ثم يدعو من
يساعده فى وَضْع حمله الذى يُبْهِظُه .. لن يجد
المجيب .. !

﴿ ولو كان ذا قُرْبَى ﴾ .. !!
أنت وحدك ، عون نفسك .
فتقدم .

كن خَيْرًا ، إن شئت ، أو شريراً !!
كن صالحاً ، إن أردت .. أو فاسداً

الحمل حملك .. والمسئولية مسئوليتك .. والمصير مصيرك .

وهذا أرقى ما يمكن أن يحرر به الضمير .
فهو إذ يُعطى وثيقة حريته .. يعطى معها وفى نفس الوقت ، زمام مسئوليته .. !!

إن « المسئولية الشخصية ، تتسع هنا ، لتشكّل وجوداً جديداً ، يفارس فيه الضمير البشرى حريته ممارسة ناشطة ، ممتلئة ، فعالة .

﴿ لا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ ..



﴿ من جاهد ، فإنما يجاهد لنفسه ﴾ ..



﴿ لا تُسألون عما أجرمنا .. ولا تُسأل عما تعملون ﴾



﴿ لا يملك بعضكم لبعض نفعا ، ولا ضراً ﴾ !!



والآن ، فمع محمد ، مرّة أخرى ، بل مرات ، بل دوماً ..
لنبصره فى جلاله . وهو يحرر الإنسان ، ويحرر الحياة .
لقد رأيناه وهو يجهز على المساومة ، وعلى الوساطة
التي تجعل الضمير الإنسانى تابِعاً ، وسلعة .
والآن نراه وهو يحرره من الخوف .

إن شرّ ألوان الخوف ، هو الخوف من أنفسنا .
إنك قد تخاف « شَبِحا » . ولكن خوفك سينتهى
باكتشاف حقيقته .

وقد تخاف « ظالماً » ولكن خوفك سينتهى بانتهاء
ظلمه .

وقد تخاف فقراً ، أو مرضاً ، أو كرباً ولكن خوفك
سينتهى بمجاوزة الفقر إلى الغنى ، والمرض إلى العافية ،
والكرب إلى الفرج .

أما حين تخاف نفسك .. فإنك تصاب بشراً ما يمزقك .. ؟
لماذا .. ؟؟؟

لأن نفسك لا تفارقك أبداً ، ولو غادرت الأرض كلها إلى
السماء ، وإذن فستظل مخاوفك معك ، تحيط بك ، وتُملى
لك ، وتفقدك سكينته نفسك ، وتُتَبَّر وجودك تنبيراً .. !
وخوف النفس ، ينميه الفهم المغلوط لطبيعتها ،
والمبالغة فى تجسيم أخطائها ..

عندئذ يلفح الضمير نوع ردىء قاس من الشعور الحاد
بالإثم ، يشطر الذات الواحدة شطرين ، ويقسمها إلى
معسكرين . ؟

ويشعل فى الشخص الواحد المنقسم على ذاته « حرباً أهلية » مضمّنة .. !

وفى هذا ، يتقدم الرسول ليتابع القيام بواجبه تجاه تحرير الضمير .

إنه لا يتغاضى عن الذنوب ، إذا كانت جرائم « طبقة » أو جرائم « سلطة » ..

ونعنى بجرائم « الطبقة » ، تلك التى تشكل مقاومة لمصالح الجماعة ، وحقوقها . وتقدمها ..

ونعنى بجرائم « السلطة » ، تلك التى تُستغل فيها الوظيفة ، أو المركز ، فى انتهاك مال ، أو إهدار حق ..

أما تلك التى يفرزها الضعف الإنسانى ، فى نطاق فردى : فهو بها جدُّ رحيم .. !

وكما قال السيد المسيح من قبل : « من كان بلا خطيئة ، فليرمها بحجر » ..

يقول سيدنا محمد :

﴿ كل بنى آدم خطاء ﴾ .

وإنه ليضع أخطاءنا الأخلاقية فى مكانها الطبيعى ، بوصفها « إفرازاً » يكاد يكون حتمياً ، لوجودنا ، ولطبيعتنا .. فيقول :

﴿ والذى نفسى بيده ، لو لم تذنّبوا ،

لذهب الله بكم ، ولجاء بآخرين

يذنبون ، فيستغفرون ، فيغفر لهم ﴾ .

إن الرسول ، لا يحرض بهذا على الخطأ ، والرذيلة ..

وإنما يشير إلى قانون هام من قوانين حياتنا .. ذلكم ،
هو « قانون التجربة ، والخطأ » .

إن الذنب هنا يعنى : الخطأ ..
والاستغفار ، يعنى : التجربة ..

لأنه - أعنى الاستغفار - يمثل الموقف الذى نحاول فيه
استرداد أنفسنا ، وغطامها عن الخطأ الذى كانت تُقارِفُه ..
وهذه : تجربة ..

ذلك أن التجربة ، ليست هى الحادثة التى تحدث لنا ..
بل هى ، موقفنا من الحادثة نفسها ..
وبيثُ الرسول فى الضمير مزيداً من الطمأنينة ،
فيضرب هذا المثل :

ذات يوم ، وهو يسير مع أصحابه ، يبصر على الطريق
أمّاً تضم طفلها فى شغف كبير ، وفى حنان أكيد .. فيقف
متأملاً ، ثم يسأل أصحابه :

— ﴿ أترون هذه الأم ، طارحة ولدها
فى النار ﴾ . ؟ !

ويجيب أصحابه رضى الله عنهم :

﴿ أبداً ، يا رسول الله ﴾ .

فيعقب الرسول ، قائلاً :

﴿ والذى نفس محمد بيده ﴾ ..

﴿ لله أرحم بعبده المؤمن ، من هذه

بولدها ﴾ !!

ويتلو محمد آيات ربه في هذا المقام .
وإذا كان الشعور الحاد بالذنب يعزلنا عن أنفسنا ،
ويسبب خوفاً منها ، ويضعف ثقتنا بها ..
وإذا كان الرسول ، قد أبعد عنا وطأة هذا الشعور ،
حين ضاعل من خطورة ذنوبنا وأخطائنا ..
فإنه أيضاً ، فى نفس اللحظة .. ولنفس السبب ، قد
كره إلينا الخطايا ، وحذرنا من ارتكابها ..
فليس من المعقول أن يُعنى بتطهير المصّب ويغفل أمر
المنابع .

وإذن ، فهو حين يدعونا إلى الفضائل ، وحين ينهانا
عن الرذائل ، بل وحين يُلح أحياناً فى دعوته هذه ، فإنه
لا يعنى التحكم فى الضمير ، إنما يريد أن يبتعد به عن
دواعى الخوف وأسبابه .

ويريد له أن يحتفظ دوماً بأمنه وسلامه .

﴿ فالذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ،

لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .



﴿ ومن يعمل سوءاً ، أو يظلم نفسه ،
ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً
رحيماً ﴾ ..

بل إنه ليذهب فى إفساح آماذ الأمل والرحمة مذهباً بعيداً ،
باراً ..

فيدعو صاحبه « أبا هريرة » ذات يوم ، ويقول له :
يا أبا هريرة ، اذهب ، وبشر كل من يلقاك بالجنة ..
ويبتهج « أبو هريرة » لهذه المهمة الطيبة التي ستنزله
فى قلوب الناس منزلاً مباركاً ، إذ يبشرهم بأعظم بشرى
ينتظرونها ..

ويمضى مهرولاً .. يبشر كل من يقابله بالجنة .
ويلمح .. « عمر بن الخطاب » قادماً ، فيجرى نحوه
سعيداً بالجميل الذى سيسديه إليه ، فيربح به قلبه .
ويلقاه ، ويعانقه ، ويصيح
يا عمر . أبشر بالجنة ..
— الجنة .. « ومن أنباك هذا .. »

أنبأنى رسول الله يا عمر .. قال لى : اذهب وبشر كل من
يلقاك بالجنة ..

ويظن عمر أن أبا هريرة قد أصابه شيء .. فيأخذ
بتلابيبه فى صرامة ، ويقوده أمامه إلى رسول الله ،
ليستجلى الخبر ..

وبين يدى الرسول ، يتأكد عمر من صدق صاحبه ..
ولكنه يشير على الرسول ألا يفعل .. حتى لا يتكل الناس
على عفو الله ، فيتركوا العمل ، ويتقاعسوا عن الخير ..



بعد هذا ، يجىء دور الآفة الثانية من آفات الضمير .
وهى حرمانه حقه فى المناقشة ، والمعارضة ، ووضعه
تحت وصاية غبية من التقاليد البالية ، ومن سدنتها ،
وحُماتها .

والرسول مع هذه ، جولة موفقة ..
ومجرد ظهوره ، كرسول ، كان « نعيّاً » لها ، وقضاء
أكيداً عليها .. فلقد كان عمله ، المناقشة ، والمعارضة ..
وتسريح أولئك الذين يزعمون لأنفسهم من دون الناس ،
حق التوجيه والوصاية .

إنه يحدث الناس عن ربه
﴿ سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف
بدأ الخلق ﴾ ..

ويطوّف بين آيات الكون وعجائبه ، ثم يقول .
﴿ إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ ..
﴿ إن فى ذلك لآيات ، لقوم
يعقلون ﴾ ..

ويسلك مع الناس سلوكاً ، من شأنه أن يُغرى الضمير
الإنسانى بالمناقشة ، وبالمعارضة .
يقول له « أعرابى » . يا محمد . أعطنى ، فليس المال
مالك ، ولا مال أبيك ..

ويهرع إليه عمر غاضباً ، يريد أن يطرحه أرضاً
أو يجهز عليه .. فيرده الرسول فى ابتسامة عذبة .
ويقول :

﴿ دعه يا عمر ﴾ ..

﴿ إن لصاحب الحق مقالاً ﴾ .. !!

وهو - عليه السلام - يلوم السليبيين الذين لا يواجهون

الخطأ بالتقويم ، وينهى الناس عن أن يكونوا كذلك :
لا يكوننَّ أحدكم إمعة ..

يقول : ﴿ إذا أحسن الناس ،
أحسننت ﴾ ..

﴿ وإن أساءوا ، أسأت ﴾ ..

﴿ ولكن ، ليوطن أحدكم نفسه ، إذا
أحسن الناس ، أن يُحسن .. وإذا
أساءوا أن يتجنب إساءتهم ﴾ .. !!

وإنه ليدمدم على التقاليد التى انتهى دورها ، ثم
لا تزال تتلكأ ، وتتشبث بالبقاء .. وعزلها عن الضمير
الإنسانى ليباشر دوره مع الحركة الجديدة للتاريخ .
ويسخر من الذين يقولون كلما دُعوا إلى التقدم : « إنا
وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .
ويرثى لمصير الذين لن ينالوا صداقته يوم يقوم الناس
لرب العالمين ، لأنهم « كانوا يرجعون بعده القهقرى » !!
ويقول مباركاً نهج الحياة فى التعبير والتطور ، وهاتفاً
بنا ، كى نسارع دوماً إلى نداء التجديد القويم الصالح :
﴿ إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل
مائة سنة من يجدد لها دينها ﴾ ..

ولقد دمر الوصاية على الضمير الإنسانى ، حين أعطاه
حُريته ، وحمله مسئولياته على النحو الذى رأيناه من

قبل .. كما اعترف بحقه فى الخلق ، والابتكار ،
والتصرف ، حين قال للناس : « أنتم أعلم بشئون
دنياكم » .. !



أما موقفه من ثالثة الأثافي التى كان الضمير يترنح
منها ، وهى : العنصرية .. فما أروعهُ وهو ينقض بناءها
حجراً ، من بعد حجر .. !!

لقد عرف - جيداً - المنزلة التى بَوَّاه الله إياها ..
ووضعه فيها .. إنه نذير يخرج فى قومه ، وبشير .
وقومه - وهنا تأخذ كلمة « القومية » أصدق مفاهيمها ،
وأحقها بالإكبار والإجلال - ..

قومه ، هم العالم .. دون أن ينقص ذلك من ولائكَ لوطنك
وعشيرتك .

أجل ، هو رسول الله إلى العالم ليهديه بالحكمة
والموعظة الحسنة ..

العالم كله .. حاضره ، وغائبه .. قريبه ، وبعيده ..
صالحه ، وزائغه !

﴿ إني رسول الله إلى الناس كافة ﴾ .

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة

للعالمين ﴾ ..

وحين يُسأل عن أفضل الأعمال ، يجيب وما أبهره من

جواب . !

﴿أفضل الأعمال ، بذل السلام
للعالم﴾ . !

بذل السلام للعالم .. ؟؟؟

لكأنه بقولها اليوم . ول كأنها تخرج الآن من بين شفتيه
الودودتين غضة ، رطبة ، حانية ، دافئة ، هادية ،
جليلة ... !!

أنتى يكون للعنصرية - إذن - فى دعوته مكان .. ؟؟
إن العنصرية ، انانية جشعة مظلمة ، ولقد عاش
الضمير الإنسانى فى حماتها حتى كاد يفقد ذاته .. وكل
تحرير له منها ، يمثل تحريراً باهراً للإنسانية كلها ، إلى
الأبد .

من أجل هذا ، أمره ربه ان يقول :

﴿يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر
وأنتى﴾ ..

﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل
لتعارفوا﴾ ..

أى لتكون غايتكم ، التعارف ، والتأخى .. !

وفى التطبيق العملى لهذه الدعوة الجليلة ، يمضى
سيدنا محمد كالضوء .

ف « سلمان » الفارسى .. يأخذ مكانه إلى جوار
« أبى بكر » و « عمر » القرشيين .. !

و « بلال » الحبشى ، يكون مكانه فى السُّلم
الاجتماعى ، ذروته وأعلامه .

بينما « أبو جهل » الزعيم القرشى ، يهوى فى تقدير
الرسالة إلى حضيض ليس له قرار .. !

ذلك أن العمل الصادق من أجل تقدم هذا « العالم »
وسلامه .. هو الميزان الذى يحدد أقدار الناس .

وبلال الحبشى .. كان من العاملين الصادقين .. لأن
الدعوة التى سار تحت لوائها ، كانت تقدماً بالحياة ،
وبالزمن ، وبالناس إلى الأمام ..

كانت تأخذهم من معادن الركود ، والبلى ، والجهل .
إلى حياة جديدة حافلة بالحركة . وبالتطلع ..

أما أبو جهل : فكان من أقطاب الرجعية ، والوقوف ..
لهذا أخذ مكانه فى أدنى السلم حتى دفعه الزحام أخيراً
إلى التراب .. !

أليست رائعة ، وعظيمة .. وقفة هذا الإنسان الكبير ،
فى قرية متواضعة هى « المدينة » .. منذ ألف وأربعمائة
عام .. يمزق راية العنصرية .. ويسوق القافلة إلى إخاء
رحيب ، ويتحدث عن « بذل السلام للعالم » .. ؟؟ !!

أجل . إنها لكذلك .. سيما حين ترى فى زماننا هذا ، ذى
المدنية الباذخة ، والحضارة الشامخة ، دُولاً ، وشعوباً
تنادى بالعنصرية ، وتقيم لها الصرح .. !

إن حاجتنا لأكيدة ، ومستمرة . لتلاوة الإعلان الذى
أذاع به « محمد والمسيح » . حقوق الضمير الإنسانى .

وخلصاه به من أصفاده التي كان يعانيتها ، ويقاسيها .
ولم يكن ثمة أى اعتبار لدى محمد ، للفوارق التي
تستطيع إذا أهمل خطامها ، أن تخلق طبقة باغية ،
أو عنصرية مستعلية ..

لا اللون ، ولا الجنس ، ولا الثروة . بل ولا الدين ..
لا شىء من هذه جميعاً يأتى له الرسول بأن يفرق بين
الإنسان ، والإنسان .

ومن جهة اللون ، والجنس ، والثروة ، يقول فيما
يقول ..

﴿ كلكم سواسية كأسنان المشط ﴾ ..

ومن جهة الدين ، يقول عن ربه :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به

نوحاً ، والذي أوحينا إليك ..

وما وصينا به إبراهيم ، وموسى .

وعيسى .. أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا

فيه ﴾ ..

ويقول :

﴿ الأنبياء إخوة . أمهاتهم شتى ،

ودينهم واحد ﴾ ..

وهو ، كرسول للإسلام ، يعامل أهل الكتاب معاملة الأخ
والنذ .. مالم تحمله ضرورات حرب على سلوك آخر
طارىء ، لا يلبث أن يزول بزوال تلك الضرورات ..

لم تكن لدعوة « محمد » عليه الصلاة والسلام حدود
إقليمية .. ولم تأخذ أبداً طابع التعصب ،
ولا العنصرية ..
أنظروا ..

حين قدم المدينة ، وجد اليهود يصومون يوم
« عاشوراء » ..

فسألهم : لماذا تصومونه .. ؟؟

فأجابوه : إنه يوم عظيم .. أنجى الله فيه موسى ومن
معه .. فصامه شكراً لله .. ونحن لهذا نصومه .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ نحن أحق وأولى بموسى منكم ﴾ ..

وصام « عاشوراء » .. وأمر المسلمين بصيامه .. !!

هذا رسول « إنساني » الرؤى .. « عالمي » النهج .

ومن ثم ، لم يكن للعنصرية في حياته ، ولا في دعوته

مكان .



هكذا حرّر « محمد » ، كما حرّر « المسيح » الضمير
البشرى من الأخطبوط الذى كان يحتبسه ، ويمحقه ،
والذى أفضنا فى الحديث عنه ، وفى الحديث عن
الإجراءات التى اتخذها ضده ، الرسولان الكريمان .. !!
ونود أن نذكر بما قلناه من قبل .

أن الضمير الإنسانى ، كما نعنيه هنا ..
هو « الإنسان فى وجوده الحقيقى » .
وأول مظاهر هذا الوجود الحق للإنسان ، هو .. الفكر .
وكل دفاع عن حرية الضمير ، وحقوقه .. هو دفاع عن
حرية الفكر ، وحقوقه .

ومن شاء .. فليعد تلاوة النصوص التى سلفت كلها ،
فسيبصر أنها مباشرة فى حماية الفكر ، مثلما هى مباشرة
فى حماية الضمير .

إن « التفكير » عملية ذهنية .. نزاولها جميعاً بأسلوب
تلقائى حتمى .. لا نتكلفه ، ولسنا على دفعه بقادرين .
كل فرد يفكر فى شئونه ، ومشاكله ، وشواغله ، ورؤى
نفسه .

وكل فرد يعبر عن ذات نفسه بالطريقة التى يستطيعها .
ويتعرقل تفكيرنا .. وينافق تعبيرنا ، حين تُصيبنا
بعض الضغوط الكابحة .

هذه الضغوط التى ترتكب بتقحمها جَمَى الفكر
جريمة .. « إرهاب الضمير » .

وإرهاب الضمير ، أشدُّ قساوةً ، وأكبر إفكاً ، وأيأس
مصيراً من إرهاب الجسد .

ذلك أن « إرهاب الجسد » قد يَكْبِتُ التصرفات والسلوك
والقول ..

ولكن الفكر يبقى بعد هذا يعمل ، ويجمع الوقود ثم
يزجيه ليوم الفصل .

وليس على ظهر الأرض قوة ، تستطيع أن تمنعك عن
التفكير فيما تشاء ..

ذلك أن التفكير عملية مخبوءة ، غير منظورة ، وغير
مسموعة .

إنك - في صمت - تفكر فيما تشاء .. ولا يعلم أحد عن
موضوع تفكيرك وخاطرات نفسك شيئاً ، إلا حين تفتح
شفئك ، وتحرك لسانك ..

ومهما تكن الظروف التي تمسك لسانك عن كلام تريد أن
تقوله .. أو تمسك سلوكك عن عمل تريد أن تمارسه ، ففي
يوم ما ، ستتوقَّر لك لا محالة ، ظروف أخرى تمكّنك من
القول ومن العمل في حرية واختيار .

لكن إرهاب الضمير شيءٌ مختلف جداً .. فهو يسلط على
« بؤرة » الحياة فيفسدها إفساداً لا يكاد يصلحها بعد ذلك
شيء .

أو هو ، يلوى زمام الضمير عن السبل الصحيحة ، إلى
طرائق ، كلها حقائق وعثرات .. !!

* * *

إنك - مثلاً - حين تؤمن بحق البشر في سلام دائم ،
ويمارس ضميرك دوماً تفكيراً دائماً في هذا الحق .. ثم
تقوم ظروف قاهرة ، أو قوة راهبة ، تحول بينك ، وبين
الإعلان عن صوت ضميرك ، وإذاعة ما تفكر فيه .. فإن ذلك
لا يضير .. إلا ريثما تتوارى تلك الظروف ، فتجد فرصتك
في التعبير عن ضميرك ، وعقلك ، وفكرتك التي انضجتها
المثابرة ، والأناة ، والصبر المفروض .. !!

لكن حين تكون الظروف من نوع آخر فتتخذ بالإرهاب
الصادر ، أو بالخداع الماكر إلى ضميرك نفسه .. إلى
عقلك ، وتفكيرك ، فتفسده حتى ترى السلام خرافة ..
والحروب ضرورة .. فتلك هي الكارثة التي لا تكاد تؤذن
بعلاج .. !!

لماذا .. ؟؟

لأن الضربة هنا ، وجهت إلى « بؤرة » الحياة نفسها ..
إلى « مركز التنفس » ذاته .. إلى الجهاز العظيم الذي
يصنع لنا في الحياة كل جليل من الأمور ، وكل عظيم من
الأعمال ..

ذلكم هو العقل .. والضمير .

ومثل آخر ..

قد تكون إنساناً متديناً ، وتعتقد - خطأ - أن تعليم
البنت حرام .. عندئذ ، ستكون مستعداً حسب درجة تدينك
إلى ارتكاب أية جريمة ، تمنع هذا الذي تظنه منكراً ، وهو
تعليم الفتاة ..

وساعتئذ ، لن تسمى جريمتك هذه ، جريمة ، ولكن
ستدعوها جهاداً .. وبطولة .. وإذا انتهت بموتك ، فسترى
الموت ، تضحية ، واستشهاداً ...!!!

وقد تكون من الذكاء والمقدرة ، بحيث تستطيع أن
تجمع حولك « قطيعاً » هائلاً من المؤمنين بك ، وبقولك ..
وقد تستطيع أن تقود هذا القطيع إلى فتنة أو ثورة ،
تكافحون بها « تعليم البنت » - مثلاً - .. !

وسيكون السبب الكامن وراء هذا كله « انحراف
الضمير » .. !

ومن أين يجيء هذا الانحراف . ؟

● يجيء من إرهاب الضمير ..

● ومن تضليله ، وحبس المعرفة عنه .

ويتم إرهاب الضمير عن طريق التخويف الديني ..
والتخويف السياسى .. والتخويف الاجتماعى ..

وإن ضحايا الحروب الدينية .. والثورات السياسية
والاجتماعية .. لتشير إلى إرهاب الضمير ، كنقطة بدء لكل
ما أصاب ، وما يصيب البشرية من غناء .

ولو أن الناس يُتركون ، ليفكروا فى حرية ، وليبلغوا
حقوقهم فى حرية ، لتوفر كثير من الدم المراق ..

ومن أجل هذا ..

ومن أجل أن يحيا الناس فى وجود حقيقى صادق
طيب .. هتف محمد وهتف المسيح بالكثير من حقوق
الفكر ، والضمير .

ولقد حدثتكم فى بعض مؤلفاتى السابقة . عن المدر
البعيد . والرشيد الذى ذهب إليه محمد . فى احترامه
حقوق العقل . حتى فتح ذراعيه لحرية الشك ذاتها
وذلك . حين ذهب إليه بعض أصحابه . يشكون إليه
أنفسهم . ويبثونه مخاوفهم القاتلة من شكوك فى الله .
تُساوَرُهُمْ ..

فإذا هو يُجيبهم متهللاً .
﴿ هل وجدتموه .. ؟؟ - يعنى
الشك - ﴾ .

فيقولون فى أسى . نعم ..
فيجيبهم فى بشر .
﴿ الحمد لله .. هذا محضر
الإيمان ﴾ ... !!!

من كان يعرف مثلاً . لاحترام الضمير الإنسانى . أروع
من هذا المثال . فليدلنا عليه ..
هذا رسول .. صاحب دعوة .. وصاحب دين ..
أُباب دينه . الإيمان بالله ..
ثم يعتبر الشك سبيلاً لليقين . ووسيلة للإيمان . بدلاً
من أن يعتبره جريمة ووزراً .
إنه لأمر فريد . وعجيب .. !!



والآن .. يجيء دور سؤال هام ، علينا أن نعرضه ..
وعلىنا أن نواجهه فى شجاعة ، وفى بصيرة ..
وهذا هو السؤال .

الم يكن السلوك الذى حدده المسيح ومحمد للناس ،
وطلبا إليهم ألا يُجاوزوه - وصاية على الضمير .. ؟
الم يكن التخويف الشديد الذى بثَّاه خلال وعيديهما
للعصاة .. إرهاباً للضمير .. ؟

سؤال يجيء فى أوانه ، وفى مكانه ، بعد حديثنا
المسهب عن رعاية الرسولين لحقوق الضمير الإنسانى ،
وحمايتهما لمصيره .

واجيب : لا .. لم يكن من ذلك شيء .. إذا أحسنا فهم
محمد وفهم المسيح ..

لقد ظهر المسيح فى قوم ، كانوا يخضعون - كارهين -
لوطاة « روما » وكبريائها .. ويخضعون - مخدوعين -
لتعاليم الكهنة وخرافاتهم ..

ناس ، كان الضمير فيهم ملفوفاً داخل قطعة من العلم
الرومانى .. المرشوش بالماء المقدس . أو الذى كان
الكهنة يسمونه مقدساً .. "

وكانت السلطة الزمنية ، والسلطة الدينية
« متفاهمتين » تماماً على موقفهما من الضمير « متفقتين »
على ضرورة اضطهاده ، والتنكيل به .

السلطة الزمنية ، تضطهده بوسائلها المعروفة ..
السجن .. والصلب والتعذيب .. !

والسلطة الدينية ، ترهبه بوسائلها المعروفة كذلك .
الطرد من الهيكل .. الحرمان من البركة .. الوعيد
بالنار .. !!

فماذا فعل المسيح تجاه هاتين السلطتين الضالقتين ؟
أما الأولى فقد أراد أن يعزل سلطانها عن الضمير
بطريقة ذكية ، فقال حكمته الماثورة :
﴿ ما لقيصر ، لقيصر .. وما لله ،
لله ﴾ ..

واتجه صوب السلطة الدينية ، التي كانت في معظم
تصرفاتها « دثاراً » يغطي جرائم روما وسلاحاً يفتك به
حكامها .. فقال لرؤساء الكهنة :
﴿ يا أولاد الأفاعى .. يا مُراءون ..
أنتم كذّابون ، ومهرجون .. تتحدثون
بالصالحات وأنتم فجرة ﴾ .. !!

وعمد إلى أساطيرهم ، فتحداها وسخر منها ..
واستقبل الضمير الإنساني ، القابع في أفئدة ناس
يرتجفون من الخوف ، فقال لهؤلاء : لا تخافوا .. إن أباكم
السماوى قادر على حمايتكم .. وهو فيما يتعلق بحقوقه ،
غفور رحيم ..

وبمثل هذا .. قام محمد ..
قال ، للأشيراف الذين كانوا يستضعفون الناس ،
وَيَسْتَرْقُونَهُمْ :

﴿ ليس لابن البيضاء ، على ابن
السوداء فضل .. فارفعوا العبيد إلى
جواركم ﴾ ..

فلما وضعوا أصابعهم فى آذانهم ، قاد العبيد بنفسه ،
ليأخذوا مكانهم المشروع ، بجوار السادة ..
ولما رفع السادة سيوفهم .. صاح بالعبيد ، أن
يدحرجوا السادة الغاضبين إلى السفح البعيد ..
ويأخذوا مكانهم الذى هم به جديرون . !
واتجه صوب « الأسر الدينى » المتمثل فى الأصنام .
فألقاها على الأرض أنقاضاً وتراباً ، وقال ، وهو يتكت
مصيرها :

﴿ جاء الحق ، وزهق الباطل .. إن
الباطل كان زهوقاً ﴾ .. !!

ولم يكن ذلك من المسيح ومن محمد ، إلا لحساب
الضمير ، ولحساب التقدم الإنسانى أيضاً ..
وقد يصعب على بعض الناس ، تصور هذا اليوم ،
لأنهم بعيدون - جداً - عن الزمان ، وعن المكان ، وعن
الظروف التى تمت خلالها ، تلك الخطوات الجليلة ،
الجريئة ، الفاتحة ..

وهنا نسأل :

أكان يصح ، والرسولان الكريمان ، يهدمان تعاليم

جامدة ، ألا يقيما مكانها نهجاً للحياة جديداً .. ؟؟
بَـدَاهَةً ، لا .. ولا بد إذن من منهاج .. ولقد دعا كل منهما
إلى منهاجه .

وهذا المنهاج ، ثابت وباق فيما يتعلق بقيم الحياة
المثلى .. من خير ، وحق ، وجمال ، وتوضحية ، ومعرفة ..
ولكنه مَرِن ، ومتحرك ، وقابل للتطوير ، فيما يتعلق
بسلوك الجماعة ، واحتياجاتها ..

والآن ، نسأل سؤالاً آخر :

ماذا كانت طبيعة دعوتهما .. ؟؟

أكانت وصاية على الضمير .. ؟؟

أكانت ، وهى تدعو الناس إلى فضائل معينة تريد أن

« تَحَدِّد إقامة الضمير » .. ؟

أكانت ، وهى تُخَوِّف الناس من عاقبة الخروج عن

الصف ، تريد أن ترهب الضمير .. ؟

إن تخويفاً أكيداً ، قد حدث ..

ونستطيع أن نلتقى به فى تلك الآيات الغضاب التى

يضمها الإنجيل ، ويضمها القرآن ..

● لكن التخويف الذى لا يتحوّل إلى إرهاب ، قد يكون

نافعاً .. سيما فى تلك الأزمان البعيدة .. ذلك أن الطبيعة

الإنسانية ، كما تنفعل بالرجاء ، تنفعل بالخوف ..

ونحن حتى اليوم ، نعتمد قوانيننا ، ويعتمد عرفنا

الاجتماعى ، على الزواجر ، كوسيلة من وسائل التربية

والتقويم : وكما قلنا : التخويف فى حد ذاته ، وبقدر
حصيف ليس ضاراً ..

فلا بد من مخافة المرض .. حتى نُعنى بالصحة ..
ولا بد من مخافة الفوضى .. حتى نحترم النظام ..
ولا بد من مخافة الحرب .. لكى نقشبت بالسلام .
إلى الآن - على الأقل - يلعب الخوف الطبيعى هذا
الدور فى تقدمنا ..

ولكن حين نسرف فى استعمال الخوف فيصير إرهاباً ..
أو نسيء استعماله ، فلا نقدم معه الأمل والرجاء ، فإن
الوضع آنئذ يختلف كثيراً .

ويتحوّل الخوف إلى جريمة ووبال .
والتخويف الذى لَوَّح به المسيح ، وأخوه محمد ،
لم يكن مسيئاً ، لأنه لم يكن وحده .. بل كان وَسْطَ دُخْرٍ
عظيم من الرجاء ، والأمل ، والكشف الصادق عن رحمة الله
الواسعة ، وفضله السابغ ..

كما أنه لم يكن إرهاباً ..
فالمسيح لم يحمل سيفه ليدخل عقائده
فى قلوب الناس عنوة ..
ومحمد لم يحمل سيفه ليدخل عقائده
فى قلوب الناس عنوة ..
إنما حمّله ، ليدافع عن نفسه وعن دينه
ضدّ المعتدين ..

وليس أدلّ على هذا ، من أنه حين ظفر وانتصر ،
لم يُكره واحداً من الناس على الدخول في دينه ..
ولقد رفع - عالياً - هذا المبدأ الجليل الذي أوحاه الله
إليه ..

﴿ لا إكراه في الدين .. قد تبين الرُّشد
من الغي ﴾ ..

● وإذا انتفى وجود الإرهاب .. انتفى وجود
الوصاية ، والحجر على الضمير ..
لقد كان لكل من الرسولين ، عقيدته ومنهاجه .. بثَّ
الرسولان دعوتهما في حرارة وقوة ، ورسمًا للمؤمنين بهما
مسلكاً وطريقاً .

ولكن ذلك كله ، لا يعنى الحجر على الضمير الإنساني ،
ولا ينبغي أن يعنى ذلك في وعينا .
فكل إنسان حر ، في أن يقبل عليهما ، أو يعرض
عنهما .. وهما لا يسلكان الناس في الأغلال ، ثم يسوقانهم
إلى الإيمان ، والإذعان ..
كما أنهما لا يحرمان المؤمنين بهما من حق التفكير
والمحاولة ..

هذا هو المسيح يقول :

﴿ ابحثوا عن الحق ﴾ ..

والقرآن يقول :

﴿سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف
بدأ الخلق﴾ ..

والرسول يقول :

﴿تفكر ساعة ، خير من عبادة سنة﴾ .

ولقد طالعنا من قبل موقفه الجليل إزاء الذين غلبهم
الشك فى الله ، أو كاد .. فما غَنَّفَهُمْ ، ولا فتح لهم أبواب
الجحيم ، بل قال لهم ، وعلى شفّتيه بسمه الرضا واليقين
﴿ هذا صريح الإيمان ﴾ .. !!



■ الفصل الخامس ■

مَعَا مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ

« أنا خبز الحياة .. »
كان المسيح يُهدى إلى الحياة من خير
ما فى نفسه . حين قال هذه الكلمات ..
وإنها لتحمل من الطرافة . بقدر
ما تحمل من الحكمة الغنية الحافلة ..
وإنها لتثير تساؤلاً ، وعجباً .. ؟
فماذا كان يعنى المسيح بالخبز .. ؟
أكان يعنى المذاق المادى لطيبات
الحياة وهو الذى قال : « لا تطلبوا أنتم
ما تأكلون ، وما تشربون » .. ؟

ولماذا اختار هذا التركيب بالذات « خبز الحياة » . ؟
لماذا ، وهو العابد الأَوَّاب ، لم يقل أنا خبز الإيمان ..
أو : أنا خبز التقوى .. أو خبز الآخرة .. ؟
لماذا أتر « الحياة » . وقال « أنا خبز الحياة » . ؟
إلا إن الجواب ليسير .

فالحياة . هى « الموضوع » الذى جاء المسيح ليجلوه
للناس ، ويشرحه . ويلقى فيه درسه البليغ ..
هى « الأم » التى جاء المسيح ، كما جاء محمد . وكما
جاء إخوة لهم من المرسلين . لينادوا إليها ابناءها
الشاردين عنها .. وليحيوا فى أنفس الناس .. شعائر البر
بها . والولاء لها ..

وإذا كانت الحياة لا يظفر بها . ولا يحياها ، إلا أولئك
الذين يكون لهم وجود حقيقى ، فقد جعل الرسولان
العظيمان نصب أعينهما ، اكتشاف هذا الوجود الحقيقى
للإنسان ..

ووجودنا الحقيقى ، يبدأ من أين .. ؟
يبدأ من حيث توجد وتمارس العلاقات الصحيحة مع
كل ما حولنا .. ولقد كان اكتشاف هذه العلاقات ، أكثر
ما عاش له ، وعمل فى سبيله . محمد . والمسيح ..
لقد كشفوا للإنسان أزكى علاقاته ، بالله .. وبنفسه ..
وبالعائلة البشرية كلها .. وبالكون وأسراره الحافلات ..
● أما علاقتنا بالله ، فقد ارتفعا بها فوق كل رغبة ،
ورغبة . وجعلها حباً خالصاً .

قال سيدنا المسيح :

« الله محبة » ..

وقال سيدنا محمد :

« أفضل الأعمال ، الحب في الله » ..

● وأما علاقتنا بأنفسنا ، فقد ركّزها في العمل الدائب على صقلها ، وتعليتها .
قال المسيح :

« ماذا ينفع الإنسان ، لو ربح العالم كله ، وخسر نفسه » ..

وقال القرآن المنزل على محمد :

﴿ قد أفلح من زكّاه ، وقد خاب من دَسَّاه ﴾ ..

● وأما علاقتنا بالآخرين ، فالتسامح المطلق ، والتعاضد الوثيق .
قال المسيح :

« أحسنوا إلى مبغضيك ، وصلُّوا لأجل

الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » ..

وقال محمد :

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ..

● وأما علاقتنا بالكون ، وبأسرار الطبيعة ، فهي التطلع الشغوف . والبحث وراء المجهول .
قال المسيح :

« اقرعوا ، يُفتح لكم » .

وقال القرآن الكريم :

﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانظُرُوا كَيْفَ
بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾

عندما تتوافر لنا هذه العلاقات الرشيدة ، تتولد من تفاعلها ، حركة ، دائبة ، بانية ، غايتها استثمار وجودنا . واستثمار الوجود بما يقتضيه من حركة ، وبما ينشئ من تَبعة ، وبما يُعطى من نتيجة : هو الحياة ..
لقد أحبَّ المسيح الحياة ، بقلب حميم ، وعشقها بروح ودود .

كان - كما وصف نفسه - خبز الحياة .. لأنه غَذاها بتعاليمه ، وسقى مُثُلها العليا ، وَقَيَمها الباقية من رُوحه . ومن أراد أن يبصر حبَّ المسيح للحياة ، فليبصره في الإنسان ..

فقد كان الإنسان خير موضوعات الحياة عنده .. وأحبَّ وأقرب أشكال الإنسان إلى قلبه .. الطفل ..
إن « الإنسان الطفل » حبيبٌ روحه ، وصفى نفسه ..

لأنه خير مثال للحياة الطالعة .. الصاعدة .. البريئة ..
الصادقة .. !!

إنه يحب الحياة ، غضة . مُترعرة ، ناضرة ، لا تأثيم
فيها ، ولا مُحَاتلة .

ومن ثمَّ مجد انعكاسها هذا على خير موضوعاتها -
الإنسان الطفل - الذى يمثل الحياة الكاملة حقاً .. حين
يُحاول .. وحين يتعثّر .. وحين يشبّ وينمو .. !
لنقرأ فى الإنجيل هذا النبأ :

« .. فى تلك الساعة ، تقدم التلاميذ
إلى يسوع قائلين فمن هو أعظم فى
ملكوت السماوات .. ؟

« فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه فى
وسطهم ، وقال : الحق أقول لكم ، إن
لم ترجعوا وتصيروا مثل هؤلاء الأولاد
فلن تدخلوا ملكوت السماوات ..

« فمن وضع نفسه مثل هذا الولد ،
فهو الأعظم فى ملكوت السماوات ..
« ومن قَبِلَ ولداً واحداً مثل هذا ،
فقد قَبِلَنى ، ومن أعثر أحد هؤلاء
الصغار المؤمنين بى ، فخير له أن يعلق

فى عنقه حجر الرحى ، ويغرق فى لجة
البحر» .. !!

إن هذا الحَدَب العظيم على الطفولة الإنسانية ، يمثل
حَدَباً أعظم على كل ما فى الحياة من خير ، وجمال ،
وصدق ، وسلام ، وصعود ..

وكل من يُعثر واحدة من هذه القيم التى تزين الحياة
وتنمّيها ، فقد أعتز طفلاً من أطفال الله الذين يحبهم ،
ويحرسهم ، ويرعاهم ..

ولأنّ الحياة عنده ، تعنى الازدهار والاستمرار ، كان
كثيراً ما يشبّنها بالحقل ، ويشبّه نفسه بالزارع المثابر ..
والحياة لدى المسيح ، هى الحياة .. خيرها ،
وشرها .. حلوها ومرها .. خطأها ، وتجربتها ..
وهو يحبها جميعاً .. ويحنو عليها جميعاً .. حتى فى
شقائها ، وفى أخطائها ..

ضرب لنفسه ذات يوم مثلاً :

« إنساناً زرع زرعاً فى حقله ..
وفيما الناس نيام ، جاءه عدوه وزرع -
زواناً - فى وسط الحنطة ، ومضى ..
« فلما طلع النبات وألقى ثماره ،
ظهر الزوان بجانب الحنطة ، فجاءه
خدمه ، وقالوا له : ياسيد ، أليس زرعاً

جيداً زرعت فى حقلك ، فمن أين له
هذا الزوان .. ؟؟

« قال لهم : إنسان عدو ، فعل
هذا ..

« قالوا له : أنذهب ، فنجمعه ؟
« قال لهم : لا ، لئلا تقلعوا الحنطة
مع - الزوان - وأنتم
تجمعونه » !!!

انظروا حنانه على الحياة ، وأحيائها ..
طالعوا برّه بفضائلها ، وبأخطائها ..
إن الزرع الجيد ، هم الناس الطيبون ، والزرع
الردىء ، هم الناس الخطّاءون ..
وإنه ليرفض أن يقتلع الزرع الردىء رفقاً بالطيب ،
حتى لا يُجثت معه ، ويذهب بدداً ..
ولكن ؟ أكان يعنى إسلام مصير الطيب للخبيث ؟؟
كلا ، فالمسيح لا يدع الرحمة تبطل العدل ، ولا يتأتى
لبرّه العظيم أن يعتاق سنن الكون ، ونظام الحياة ..
ومن أجل هذا ، آتمّ المثل الذى ضربه ، فقال :
« .. دعوهما ينمّوا .. كلاهما معاً إلى
الحصاد ..

« وفي وقت الحصاد ، أقول
للحاصدين :

أجمعوا أولاً - الزوان - واحزموه
حزماً ليحرق .. وأما الحنطة فاجمعوها
إلى مخزني » . . . !!

تري ، لو أمكن تحويل هذا - الزوان - إلى زرع طيب .
وجنطة جيدة . سيكون مصيره الحرق أيضاً .. ؟
بالبداهة ، لا .. وهنا يتم حرص المسيح على الإنسان
وعلى الحياة دورته ، فيبذل جهده ليحوّل - الزوان - إلى
زرع نضير . وقمح وفير
يُحوّل الشرّ إلى خير .. والإنسان الضالّ إلى إنسان
أمين مستقيم .

« أنا ما جئت لأدعوا أبراراً للتوبة ،
بل خطّائين » ..



« ما جئت لأهلك أنفس الناس ، بل
لأخلص » .



.. ولقد أحبّ « محمد » الحياة حباً عزيزاً نقياً ، وكان لها
صديقاً ، أيّ صديق .. !!

أحبها في كل مظاهرها . ونَبِضُها .
فإذا هطل المطر ، سارع إليه كاشفاً عن صدره . ليتلقَى
رذاذه الندى الرطيب وليس بينهما حجاب ..
وإذا بزغ الهلال ، استقبله في إخبات وحفاوة . وناجاه
قائلاً :

« ربى وربك الله » ..

ويسير بين الحقول - وما كان أندرها في بلده - فإذا
وقعت عيناه على براعم تتفتح ، دنا منها ، ومسها بيد
حانية ، ثم انحنى عليها ، ولثمها بغم شكور . وغمرها
بفيض من مودته وصادقته . ثم همس إليها قائلاً .

« عام خير وبركة ، إن شاء

الله » .. !!

وإذا طلعت الشمس استقبلها داعياً مبتهلاً وحين
تغرب ، فلها منه تحية الوداع ..
ولكنما سارع الله إلى هواه ، وشاء أن يزكى صداقته
الحميمة للكون . والحياة ، فأقسم في قرانه الكريم
بـ « الليل » إذا يغشى .. والنهار ، إذا تجلى .. « وأقسم
بـ « الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا
جلاها » ..

لقد احترم الرسول صلى الله عليه وسلم الحياة في كل
حي .. في الإنسان .. والحيوان .. والطيور ..
في الأبيض .. والأسود .. والأصفر ..

فى عظمتها . وفى بؤسها .
مرت به ذات يوم جنازة ، فوقف لها فى خشوع .. حتى
إذا جاوزته قال له أصحابه : يارسول الله ، إنها جنازة
يهودى .. فأجابهم

. « سبحان الله .. !! أَلَيْسَتْ
نَفْساً » .. ؟؟!!

ولم يُطِقْ أن يرى الحياة تتعذب فى « هِرَّة » فقال
محذراً :

« دخلت امرأة النار فى هِرَّة
حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى
تركتها » ..

بل أراد أن يملأ الأفئدة بتقديس الحياة ، حتى لايبقى
فيها مكان - أى مكان - لا متهانها .. وساق هذه القصة
القصيرة ، والمثيرة :

« بينما بَغَى تسير ذات يوم ، إذ رأت
كلباً يلهث من العطش ، فخلعت موقها
أى نعلها - وأدلت به جبل فى بئر ، وملاؤه
ماء ، وسقت الكلب ؛ فشكر الله لها ،
وأدخلها الجنة » .. !!

وَحُبِّهِ للحياة . جعله يرفض أن يحياها مترفاً ، لأن

الترف يذهب ببهجة معاناتها ..

« نحنُ قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا
أكلنا ، لا نشبع » ..

ورفض أن يحياها متجبراً ، لأن التجبر افتيات على
قداستها ..

« إنما أنا بشر مثلكم » ..

ورفض أن يعزله الجهل عن حقائقها ..

﴿ رب زدني علماً ﴾ ..



« اطلبوا العلم ولو في الصين » .

ولم يحدث قط أن تحدث القرآن عن الحياة حديث
استخفاف وتحذير إلا وهي مقرونة بكلمة « دنيا » .

﴿ الحياة الدنيا ، لعب ولهو ﴾ ..

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع

الغرور ﴾ ..

﴿ وأترفناهم في الحياة الدنيا ﴾ ..

وقال عن الذين يعيشون كالأنعام ، لا دور لهم في
الحياة :

﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت
ونحيا﴾ ..

فالحياة المقرونة بهذا الوصف ..

الحياة « الدنيا » ..

الحياة الصغيرة الضئيلة ، التي لاتحقيق لها ،
ولا تبرير فيها ، هي التي يذكرها القرآن دوماً في مجال
الاستخفاف ..

أما الحياة العظيمة ..

الحياة الصالحة ، فالمسيح خبزها .. ومحمد
صديقها ...



قلت : إن علاقاتنا السديدة بالله .. وبأنفسنا ..
وبالعالم .. وبالكون جميعه .. تمكّنا من استثمار
وجودنا ..

وقلت : إن استثمار الوجود يعنى أننا نمارس الحياة ..
وأقول : إننا على أبواب هذه الممارسة نلتقى بعلاقات
أخرى تربطنا بالحياة ، وتشدنا إليها ..

وكلما كانت هذه العلاقات صافية ، صادقة ، جادة ..
كانت الحياة بالنسبة لنا فرصة عظيمة مباركة ..
أما إذا اغتَوَرَ هذه العلاقات الزيف ، والانحراف ،
والكذب ، فإن الحياة - حياتنا - تفقد جمالها ، وقيمتها ..
وقد نستطيع أن نتصور هذه العلاقات في :

● الحب ..

● الصدق ..

● العمل ..

كل أشياء الحياة ، بينها مودة وإلاف .. حتى الخير
والشر اللذان يبدوان لنا نقيضين لا يتفقان ، وضدين
لا يجتمعان .. يسرى بينهما « شريان » خفى من
التجاذب والتعاون .. وكثيراً ما تعمى السبل على
الخير ، فيتقدم الشر ويفتح أمامه الطريق .. !
والأرض . وما حولها من كواكب ، تألف
الشمس ، وتحبها ، وتنجذب نحوها ..
ونحن ننجذب إلى الأرض فى حنان ،
واضطرار ..

وهكذا ، فالحب الذى نسميه « جاذبية » ليس مجرد
فضيلة ، ولا مجرد عاطفة .. إنما هو « قانون » يحفظ
لأصحابه الوجود ، والبقاء ..

وسكان هذا الكوكب - نحن البشر - فى حاجة
أكيدة ، لإدراك هذه الحقيقة إدراكاً سديداً ..
وبالأمس .. الأمس البعيد ، الذى أرسل فيه

محمد ، والمسيح ، كنا فى أشد حاجة لهذا الإدراك ..

فغرائزنا التى خرجنا بها من الغابة .. ونظمنا
الملائى بالتناقضات .. كثيراً ماتجعل منا خصوماً
وأعداء ، والحب منتصر حتماً آخر الأمر ، لأنه كما
أسلفنا ، ليس عاطفة ، بل « قانوناً » .. يَبْدُ أن ذلك
لا يعنى السكوت عن دعوة الناس إلى ممارسة هذا
القانون ، وإحياء شعائره ، والتزام جادته ..
ولقد جاء الرسولان الكريمان ليناديا الخليقة
إليه .. إلى الحب ، والإخاء ..

وأروع ما فى دعوتهما للحب من شواهد ، هو
إسقاطهما ذنوب المتحابين فى الله ، وجعلهما
« الحب » رحمة واسعة ، تذوب فى دفتها ، الخطايا
والآثام .

فالمسيح وهو يفسر سبب المغفرة الشاملة التى بَشَّرَ
بها الخاطئة ، يقول :

« لقد أَحَبَّتْ كثيراً ، فَغُفِرَ لها
كثيراً » .. !!

ومحمد

. يُسَاقُ إِلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، كَانَ قَدْ اعْتَادَ
اِحْتِسَاءَ الْخَمْرِ .

وَلَمْ يَكِدْ أَصْحَابُ الرَّسُولِ الْجَالِسُونَ مَعَهُ يَبْصُرُونَ
الرَّجُلَ قَادِمًا . يُقْسِكُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِتَلَابِيهِهِ . حَتَّى قَالُوا
فِي اِزْدِرَاءٍ وَضَجَرٍ : « لَعْنَةُ اللَّهِ ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ
شَارِبًا » !!..

وَلَكِنِ الرَّسُولُ لَا يَسْتَرِيحُ لَمَّا يَسْمَعُ مِنْهُمْ . فَيَقُولُ لَهُمْ
فِي اِهْتِمَامٍ :

« لَا تَلْعَنُوهُ ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ » .. !!

وَهَكَذَا ، يَقِيمُ الْمَسِيحُ وَالرَّسُولُ ، الْمَعْيَارَ الْحَقَّ لِفَضِيلَةِ
الْإِنْسَانِ - أَيْ إِنْسَانٍ - وَهَذَا الْمَعْيَارُ .. هُوَ .. الْحُبُّ ..
وَحُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ هُنَا ، يُمَثِّلُ مَجَالًا أَرْحَبَ مِمَّا قَدْ يَتَبَادَرُ
إِلَى أَفْهَامِنَا .

إِنْ حُبَّ اللَّهُ ، يَعْنِي حُبَّ آثَارِ رَحْمَتِهِ جَمِيعًا مِنْ بَشَرٍ ،
وَشَجَرٍ وَحَجَرٍ .

يَعْنِي حُبَّ الْحَيَاةِ كُلِّهَا ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ زَيْنَتُهَا ،
وَأُبَابُهَا .

لَقَدْ غَفَرَ الْمَسِيحُ لِلْخَاطِئَةِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَتَّصِلُ بِالْحَيَاةِ
الْعَظِيمَةِ عَنْ طَرِيقِ عِلَاقَةٍ مِنْ أَوْثَقِ عِلَاقَاتِهَا ، وَهِيَ
الْمَحَبَّةُ .

وَأَرْفَضَ مُحَمَّدٌ ، أَنْ يُلْعَنَ رَجُلٌ سَكِيرٌ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَرْعَى فِي
فَوَادِهِ نَفْسَ الْعَلَاقَةِ ..

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكُونُ عِلَاقَتُنَا بِالْحَيَاةِ قَائِمَةً ،
وَصَادِقَةً ، فَإِنْ أَخْطَأَ السُّلُوكُ ، نَفَقَدُ ضِرَافَتَهَا وَقِيَمَتَهَا ،
مَا دَامَتْ لَا تَأْخُذُ طَابِعَ التَّحْدِي وَالْإِصْرَارِ ..

وَالْحُبُّ - كَمَا قُلْنَا - أَوْثَقُ عِلَاقَتُنَا بِالْحَيَاةِ .
وَلَقَدْ يَأْخُذُ فِي مُصْطَلِحَاتِنَا أَسْمَاءُ شَتَّى ، فَتَارَةً نَسْمِيهِ
الرَّحْمَةً ، وَأُخْرَى نَسْمِيهِ الْإِخَاءَ ، أَوْ التَّعَاوُنَ ، أَوْ الْبِرَّ ..
وَلَكِنْ اسْمُهُ الْحَقُّ سَيُظَلُّ كَمَا هُوَ الْحُبُّ ..
وَسَيُظَلُّ « أَبَا » لِكَافَةِ الْعِلَاقَاتِ ، وَالْقِيَمِ ، الَّتِي تُرْبِطُنَا
بِالْحَيَاةِ وَتَجْذِبُنَا نَحْوَهَا .

وَتَكْفِيرِ الْخَطَايَا بِالْحُبِّ ، عَلَى النُّحُو الَّذِي رَأَيْنَاهُ الْآنَ
مِنَ الرُّسُولِينَ الْكَرِيمِينَ يَشِيرُ إِلَى تَفْسِيرٍ جَدِيدٍ لِلْخَطِيئَةِ
وَاللَّذْنِبِ ..

فَأَفْعَالُنَا الَّتِي تُوصَفُ بِأَنَّهَا خَطَايَا ، إِنَّمَا حَمَلَتْ هَذَا
الْوَصْفَ ، لِأَنَّهَا تَتَّبِطُّ وَلَاعِنَا لِلْحَيَاةِ ، وَتُوْذِي عِلَاقَتُنَا بِهَا ..
وَتَكُونُ أَفْعَالُنَا شَرِّيرَةً ، لَا بِقَدْرِ مَا تَحْمِلُ مِنْ شَرٍّ ، فَلَيْسَ
لِلشَّرِّ وَجُودٌ ذَاتِي .. بَلْ بِقَدْرِ مَا تَعَزِّلُنَا عَنْ الْعِلَاقَاتِ
الرَّشِيدَةِ الصَّحِيحَةِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي تُرْبِطُنَا بِالْحَيَاةِ ، وَتُرْبِطُ
الْحَيَاةَ بِنَا ..

لِذَلِكَ صَوَّرَا فَرَحَهُمَا الْعَظِيمَ ، بَلْ وَفَرَحَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ ،
بِالْإِنْسَانِ التَّائِبِ .. أَيِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَعُودُ إِلَى تَصْحِيحِ

موقفه من تلك العلاقات التي تصد بانحياذ . ويعين
بسببها حيا ، وكريما ..
ضرب المسيح لهذا مثلا .

« .. ابناً أخذ المال الذي أعطاه له
أبوه ، وسافر إلى كورة بعيدة ، وهناك
بذر ماله .. فلما انفق كل شيء ،
حدث جوع شديد وبدأ يحتاج ،
واشتغل أجيراً لواحد من الناس ، يرعى
له خنازيره ..

« وكان يشتهي أن يملأ بطنه من
الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله ،
فلم يعطه أحد ..

« فرجع إلى نفسه ، وقال : كم أجير
عند أبى يفضل عنه الخبز ، وأنا أهلك
جوعاً .. أقوم وأذهب إلى أبى ، وأقول
له : يا أبى ، أخطأت ولست مستحقاً أن
أدعى لك ابناً ، اجعلنى كأحد
أجرائك ..

« وقام ، وجاء إلى أبيه ..

« وإذ كان لم يزل بعيداً رآه أبوه ،
فتحنّن ورکض ، وأسرع إليه وقبّله ،
وقال لعبيده :

« أخرجوا الحُلّة ، وألبسوه ،
واجعلوا خاتماً فى يده ، وحذاء فى
رجليه ، واذبحوا العجل المسّمّن
وأطعموا الناس ، ونادى قائلاً :
« لنفرح ، ونُسّر ، لأن ابنى هذا كان
ميتاً ، فعاش ، وكان ضالاً ،
فوجد » ..

وبعد ان ينتهى المسيح من ضرب هذا المثل يدير
بصره الودود على الوجوه المصغية إليه ، ويقول :
« هكذا الله .. أبوكم السماوى ..
يشتاق أن يرى أبنائه البشر يعودون إليه
تائبين » .. !!

وضرب الرسول مثلاً :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين
يتوب إليه ، من أحدكم كان على
راحلته بأرض فلاة .. فانفلتت منه

دَابَّتْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ .. فَأَيْسَ
مِنْهَا .. فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْجَعُ فِي
ظِلِّهَا ، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ..

« فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ
عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخَطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ
شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ (عَبْدِي) وَأَنَا
(رَبُّكَ) .. أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » ..
وَيَأْخُذُ الرَّسُولَانِ الْكَرِيمَانِ قُلُوبَنَا
إِلَى الْحُبِّ أَخْذَا وَثِيقًا ، بِمَا يَتَرَكَانِ لَنَا
مِنْ قَدْوَةٍ تَتِمَثَّلُ فِي سُلُوكِ صَادِقٍ
وَعَظِيمٍ .

فَالْمَسِيحُ فِي إِحْدَى أُمْسِيَّاتِهِ الْآخِرَةِ
عَلَى الْأَرْضِ ، يَقُومُ عَنْ طَعَامِ الْعِشَاءِ ،
وَيَأْخُذُ « مَنَشَفَةً » وَيَتَزَرَّبُ بِهَا ، ثُمَّ يَصُبُّ
الْمَاءَ فِي آنِيَةٍ ، وَيَدْعُو تَلَامِذَتَهُ ، فَيَغْسِلُ
لَهُمْ أَقْدَامَهُمْ وَاحِدًا ، وَاحِدًا ، ثُمَّ
يَجْفِفُهَا بِالْمَنَشَفَةِ الَّتِي مَعَهُ .. !!

ويغشى تلامذته الحياء والفرع ،
ويحاولون منع المسيح ، لكنه يواصل
عمله العظيم ، وهو يقول لهم :

« الآن تعلمون تفسيره » .

وبعد أن ينجز غسل أقدامهم وتجفيفها ، يقول :
« أنتم تدعوننى معلماً ، وسيداً ..
وحسناً تقولون ، لأنى كذلك ..
» فإن كنتُ ، وأنا السيد المعلم ، قد
غسلتُ أرجلكم .. فأنتم يجب عليكم
أن يغسل بعضكم أرجل بعض .. !!
ويُخُصب محمد واحة المحبة بكل عاطفة ريانة طيبة ،
فيوصى الناس قائلاً :
« إذا أحب أحدكم أخاه ، فليخبره
أنه يحبه » ..



« وإذا آخى الرجلُ الرجلَ ، فليسأله عن
اسمه ، واسم أبيه ، وممن هو .. فإنه
أَوْصَلُ للمودة » ..

ويقول :

« يقول الله عز وجل : المتحابون
لجلالى ، لهم منابر من نور ، يَغِطُّهُمْ
النَّبِيُّونَ ، والشهداء » . .



« إن من عباد الله أناساً ، ما هم بأنبياء
ولا شهداء ، يَغِطُّهُمْ الأنبياء والشهداء
يوم القيامة ، لمكانهم من الله
تعالى . . !

« قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من
هم . . ؟

« قال : هم قوم تحابوا بروح الله
على غير أرحام بينهم ، ولا أموال
يتعاطونها . . فوالله إن وجوههم لنور ،
وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف
الناس ، ولا يحزنون إذا حزن
الناس . . وقرأ هذه الآية .
« - ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم
ولا هم يَحْزَنُونَ - » . . !!

إن الرسول يرفع الحب فوق مستوى المنفعة والغرض .. فيقول : « تحابّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها » .

وهو أيضاً يقرر أن الحب يغطى ضعفنا ، ويرفعنا إلى كل مكانة عالية ، عجزت أعمالنا عن أن تصعد بنا إليها .. وذلك حين سألته « أبو ذر » :

يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم ؟

فيجيبه الرسول :

« المرء مع من أحبَّ » ..

إن الحب هو الزاد الذي يردُّ عن البشرية سغبها المضنى ، وهو الرُّىُّ الذى يدفع عنها ظمأها القاتل . وهى لا تستطيع أن تحيا ما لم تحب ، لأن الحب هو الأصرة العظيمة التى تجمعها بالحياة ، وتمنحها الجناحين اللذين تحلّق بهما وتطير .



والصدق ..

إنه العلاقة الثانية التي نرتبط بها مع الحياة ..

ومكان الصدق من الحب ، جد قريب .

فنحن نكذب حين نخاف ..

نكذب على الناس حين نخافهم .. ونكذب على القانون ،

حين نخافه .. بل نكذب على أنفسنا ونخدعها ، حين

نخافها ..

ومع الحب ، لا يوجد خوف .. وإذن ، لا يوجد كذب .. !

والصدق هنا ، أبعد مدًى ، وأرحب مفهوماً من مجرد

الإخبار بالواقع ..

أعني ، ليس هو قول الحق وحسب .. بل هو أن نعيش

الحق نفسه .

هذا ، هو الصدق ، كعلاقة تربطنا بالحياة ، وهو يعني

تحرير أنفسنا من كل ما يجعلها تحيا حياة زائفة مزورة .

يعني أن يشتملنا تطابق واضح ، بين ظاهرها وباطننا .

بين حياتنا الباطنة ، وحياتنا الظاهرة .

ويعني أن نكون قَوَّامين بالقسط ، ولو على أنفسنا .

ويعنى أيضاً . بذل أقصى الجهد فى كل عمل نعمله .
وفى كل موقف نتخذه ..

ولقد علمنا هذا محمد ، والمسيح .
لقد شتأ على الرياء هجوماً عنيفاً .. وأخبر الرسول أن
« ذا الوجهين ، يُدعى عند الله كذاباً » .

فالرياء كذب .. والكذب تزيف لعلاقة ثمينة من علاقات
الحياة ، وقيمتها ، وهى الصدق .

من أجل هذا ، كان الرسولان يحتفیان بكل مخطيء
يتقدم ، وفى يده وثيقة إدانته .

هذا الذى يسميه عصرنا الحديث . بـ « النقد
الذاتى » .

ولطالما ضرب الله برسوله المثل ، واصطنع منه
القدوة ..

فإذا أخطأ - مثلاً - مع إنسان ضرير .. ولو بحسن نية ،
وقف فى محراب الصلاة ، والناس من ورائه صفوفاً
ينصتون له ، وهويتلو عليهم وثيقة اعترافه ، وأوبته .

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ،

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يَزْكَى ، أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَعَهُ

الذَكَرَى .. أَمَا مِنْ اسْتَغْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ

تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَى .. وَأَمَا

مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ

عَنْهُ تُلْهَى .. ؟ كَلَّا .. !!

وإنه ليخدش أعرابياً ذات مرة ، دون عمد . فيصرُّ على
أن يخدشه الأعرابي مثلها .. "
ويقف فوق المنبر في جلال عظيم ، ليقول لأصحابه
الذين يستمعون له :

« من كنت جلّدت له ظهراً ، فهذا
ظهري فليقتد منه .. ومن كنت أخذت
من ماله شيئاً فهذا مالي فليأخذ
منه » .. !!

إنه لم يجلد في حياته ظهراً ، ولم يؤلم لأحد ظفراً ..
ولكنه الصدق المطلق مع الحياة ، يُمارسه الرسول في
انقى صوره ، وأوفاهها بالذمة والطهر ..
وإذا كانت حياته لم تتلف قط برياء أو ضعف ، فهي
كذلك لم تتلف قط بغرور ، ولا بصلف ..
لقد كان يسابق زوجته ، ويخسف نعله بيده ، ويرقع
ثوبه بنفسه .

ولقد حلب شاته .. وخدم أهله .. وحمل الطوب مع
أصحابه في بناء مسجده .. وربط على بطنه الحجر من
الجوع .. !!

وكان إذا سار في الطريق ، ومعه أصحابه ، دعاهم
ليتقدّموا عليه ..

★ ★ ★

وإذا قدم عليهم ، وهم جلوس ، جلس حيث انتهى به
المجلس ..

وكان يقول لهم دائماً ، حين يدعونه لتكريم خاص :
« إنى أكره أن أتميزَ عليكم » .. !!

هذا هو الصدق مع الحياة ..
أن نعيشها ، عادلين ، طيبين ، واضحين ، ودعاء ،
بُسطاء ..

وأن نمارس مسئولياتها ، ونعانق واجباتها ، لا أن
نتبدخ بما فيها من فراغ وتَرَف وجاه ..
أقرأوا ..

« .. وفيما كان يسوع صاعداً إلى
أورشليم ، أخذ الاثنى عشر تلميذاً على
انفراد فى الطريق .

« وقال لهم : ها نحن صاعدون إلى
أورشليم ، وابن الإنسان يُسَلَّم إلى
رؤساء الكهنة ، والكتبة ، فيحكمون
عليه بالموت .

« .. حينئذ ، تقدمت إليه أم ابنى
زبدى مع ابنيها ، وسجدت ، وطلبت
منه شيئاً ، فقال لها : ماذا تريدن .. ؟

قالت له : أن يجلس ابناى هذان -
يعقوب ، ويوحنا - واحد عن يمينك ،
والآخر عن اليسار فى ملكوتك ..
« فأجاب يسوع وقال : لستما تعلمان
ما تطلبان .

« أَسْتَطِيعَان أن تشربا الكأس التى
سوف أشربها أنا » .. !!؟؟

ما أجزلها من عبارة ..!!
فالحياة ، ليست منصباً فخرياً ، ولا وُجُوداً شرفياً ..
إنما هى عمل جسيم دائم صادق ..
وشنا نلتقى بعلاقة أخرى من علاقاتنا بالحياة ..



إنها العمل ..
والحياة بغير عمل ، تفقد ذاتها .. فهي عمل مستمر ،
وصاعد .
هى حركة أزلية ، وأبدية خالدة .. كل شىء فيها يموج
بالحركة والمثابرة ..
هذه المياه الجارية . هذه الرياح السارية .. هذه
الأشجار ، والأزهار .
بل هذه الصخرة التى تبدو جامدة .. والخشبة التى
نحسبها خامدة . كلها ، وكل أشياء الحياة تُزاول حركة
دائبة ، ونشاطاً موصولاً .
لكن العمل قد ينحرف فيفقد على الفور مزيته . وقيمه .
من أجل هذا . غنى « خُبز الحياة » كما غنى « صديقُها »
. بأن يُزكيا جميع الخصائص التى تحتفظ للعمل بقيمته
وبنقائه .

لقد أرادا للعمل أن يكون دائماً :

جليلاً ..

نافعاً ..

مستمراً ..

صاعداً ..

فالعَمَلُ الجليل ، النافع . المستمر المُوَلَّى وجهه شطر
الأمم .. لا الزاحف إلى الخلف ..

هذا العمل يمثل أسمى واجباتنا ، كما يمثل علاقة كبيرة
من خير علاقاتنا بالحياة ..

وجلال العمل ، يعنى الارتفاع بقدراتنا إلى مستوى
الكمال الميسور .. حتى نحقق بها عظام الأمور . ولا نقنع
بصغارها ..

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا :

« إن الله يحب معالى الأمور . ويكره

سَفَسَافِهَا » .

ويقول المسيح ، مطالباً الناس بمزيد من العمل ،
وبعيد من الهمة .

« كل من أُعْطِيَ كثيراً .. يُطْلَب منه

الكثير » ..

ويقول محمد :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن

يتقنه » ..

وَيُحَذَّرُ من الأعمال الناقصة المبتورة ، ويؤثر العمل المستمر ، ولو كان قليلاً ، على العمل الأبتري ، ولو كان كثيراً . ويضرب لهذا مثلاً جميلاً حين يقول .

« فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ ، لا أرضاً قطع ..

ولا ظهراً أبقى » .. !!

وهو يريد من العمل أن يكون واعياً . وأن يكون فى خدمة التقدم الإنسانى .. ولا يكون انتكاساً أو ردة إلى الوراء

وإنه لعظيم باهر ، وهو يقول فى هذا ما معناه .

« يُذَادُ أناس من أُمَّتى عن الحوض يوم
القيامة ! فأنهض لأشفع لهم ، فيقول الله
لى :

« يامحمد ، لاتفعل .. إنك

لا تدري ما أحدثوا بعدك ..

فأقول : يارب ، وما أحدثوا .. ؟

فيقول سبحانه : إنهم كانوا يمشون

بعدك القهقرى على أعقابهم » .. !!

والرسول - كما ذكرنا قبلاً - وكذلك المسيح ، كانت
دعوتهما حركة جديدة سائرة نحو المستقبل ، متجهة إلى
الأمم دوماً .

وإنهما ليُجَلَّانِ العمل ، ويهييان بنا أن نرتفع به فوق كل
عرض رديء ، ونجنبه كل انحراف وزيف .
والإنسان الذى يقضى حياته فى عمل صادق نافع ،
يصير موضع رعاية الله وتقديره ..

« لا أُضِيعُ عمل عامل منكم ، من ذكرٍ
أو أنثى »

ولقد لقي رسول الله صلى الله عليه
وسلم يوماً أحد أصحابه ، وحين
صافحه ، أحسّ فى كفه خشونة ..
فسأله :

« ياسعد ، ما بال كفّيك قد
أمّجَلتا » ؟.. !

فأجابه سعد :

— من أثر (العمل) يارسول الله .
فرفع الرسول كَفَّيَّ سعد إلى فمه وَقَبَّلَهُما ، ثم قال .
« كفّان ، يحبهما الله ، ورسوله » .. !!



هكذا . فان برُّ محمد والمسيح بالحياة ..
ام تجبهـوها بهما عاطفة عابرة . بل وعى رشيد . وإدراك
سديد لتيديتهما . ودَعْم هائل لكل القيم والقوى التى تبعث
فيها الأزدهار والتألق ..

وعلى راسها جميعاً ما ذكرناه - الحب - والعمل .
ولقد عاشا حياة مُترعة بالحب . وبالصدق . وبالعمل .
وكان لهما مع الزمان رحلة من أمجد . وأنفع . وأبقى
الرحلات .

واليوم . ونحن نشيد من آمالنا . ومن إصرارنا ببناء عزم
جديد قادر . نريد أن نحمل به حياتنا من الدمار . ولَنُنَحْنِي
إكباراً لهذين الرائدتين الجليلين ولإخوة لهما سبقوهما
بالإيمان وبالسعى . من أجل أن تبقى الحياة مزدانة بأحياء
مباركين .

وإذا كانت الحروب هى شر ما يحيق بالحياة من خطر ..
وإذا كان . محمد . والمسيح . قد أعلنوا فى ولاء
وإصرار . حق الحياة فى الحياة .

فإنه لمن الضرورى إذن . أن نُبصر موقفهما من
السلام . وكيف أراداه . وعلى آية صورة تمثلاه ..
وإنه لمن الخير لأنفسنا أن نفقه جيداً الدور الذى قام
به محمد وصاحبه لإقرار السلام فى الأرض .. وجعله
شعيرة من شعائر الله ..!



السلام ..

عندما تررّ في سمع الظامىء العطشان كلمة « ماء » ..
وفي سمع الجائع السّغبان كلمة « خبز » ..
وفي سمع المشرف على الغرق ، المُتخاذل تحت
ضربات الموج كلمة « شاطئ » ..

لا يكون لهذا الرنين مهما يكن صادقاً ، إلا قليلاً جداً ،
مما هو للرنين الصاهل القوى المفرح ، الذى تتركه فى
عصر الذرّة كلمة « سلام » ..

ولو أن الحرب . وحدها هى التى تتهدد وجودنا كله ،
لهان الأمر ، أو كاد ..

غير أن الذى يحاصرنا بأخطاره الماحقة ، والذى تعتبر
الحرب نفسها نتيجة له .. هو التفكير المُلتاث المغرض ..
وإنى لأذكر الفزع الشديد الذى غشينى ذات يوم
قريب ، حين طالعت خطاباً . أو تصريحاً لرجل مسئول فى
أوروبا ، يشغل منصباً خطيراً يقول .

« لابد من الحرب ، دفاعاً عن الحضارة المسيحية » ..
وقلت لنفسى يومها .

مسيحية ، وحرب .. ؟؟

أى اتفاق « سعيد » هذا .. !!!

إن هذه العبارة ، التى تقال فى عصرنا هذا ، المتحضّر
كثيراً ، والمتقدم جداً .. (!) لتشير إلى « الفضيلة » التى
طالما تنكرت فيها « رذيلة » العدوان والبغى ..

فمعظم الحروب التى أثخنت جروح الحياة ، كان لها

منطق تسويغى ، وحجة تبرر قيامها ، وتمنحها
المشروعية ، وجواز المرور ..!!

فباسم الدفاع عن الأديان تارة .. وباسم الحرية .
وحماية حقوق الإنسان تارة أخرى .. وباسم تمدين
الشعوب المختلفة .. وباسم المجال الحيوى للدول التى
ضاحت الأرض فيها بأهلها ..

وباسم أشياء كثيرة ، كانت تبدو ، وكأنها منطقية
وعادلة .. قامت حروب صبغت الأرض بالدم .. وغطت
ترابها بالأشلاء والجماجم ..

وكان وراء تلك الحروب .. ووراء شعاراتها الكاذبة ،
ذلك الذى أسميناه آنفاً .. بالتفكير الملتاث المغرض ..
هو « ملتاث » .. لأنه يجهل إرادة التاريخ ..
« ومغرض » .. لأنه يُقاومها ويتحداها ..

أى أنه بتعبير آخر .. كان وراء تلك الحروب ، جهل
بإرادة التاريخ ، وعصيان لها .

وهنا ، نضع أيدينا على « نقطة البدء » فى موقف محمد
والمسيح من الحرب ، ومن السلام ..

وهنا - أيضاً - تَفْنَى تلك الشُّبهات التى تُلقى فى رُوع
الكثيرين منا ، أن لمحمد من الحرب موقفاً يُغاير موقف
المسيح ..

إن من يحترم الإنسان ، والحياة ، مثلما احترمهما
المسيح والرسول ، لن يكون حرصه على السلام
إلا عظيماً .

فالسّلام ، هو المجال الآمن الذى تقرّعرع فيه مواهب
البشر ، وقدراتهم ، وهو السلوك الأّوحد اللائق بناس
يجمعهم على الأرض عناء مشترك .. ورجاء مشترك ..
وسعى مشترك .

ناس ، أبوهم واحد .. وأمهم واحدة ..
ناس ، ليسوا - مهما يتباغضوا ويتباعّدوا - سوى
إخوة وأشقاء ..

من أجل هذا ، كانت أولى الحقائق الجديدة بأن يرتدّ
إليها صوابهم ، هى ذى ..
ومن هنا ، بدأ المسيح وأخوه دعوتهم للسّلام ..
قال المسيح لتلامذته :

« معلمكم واحد ، المسيح .. وأنتم
جميعاً إخوة » .

وقال محمد :

« كونوا عباد الله إخواناً .. كما أمركم
الله تعالى » .

ولم يكن « الإخاء » مجرد كلمة يُردّدانها . بل كان كما
راينا من قبل وخلال عرضنا لموقفهما من الإنسان ..
عقيدة ، وسلوكاً .

لقد ذكرنا فى مُبتكر هذا الكتاب أن حياة كل من
الرسولين العظيمين ، كانت طاهرة ، لاشيّة فيها .. ولم
يحدث أن اخذ عليهما شيء - أى شيء - من التزويد
والإدعاء .

ولقد دَعَوْا إلى الرحمة .. فكان لابد أن يكونا رحيمين ..
ودَعَوْا إلى العدل ، فكان لابد أن يكونا عادلين .
ودَعَوْا إلى السلام ، فكان لابد أن يكونا مسالمين .
ولقد كانا كذلك فعلاً .. وعند أكثر مستويات الكمال
البشرى ارتفاعاً عاشا حياتهما ، ومارسا دورهما الفذ
العظيم .

إن أقوالهما في السلام ، لمشركة إشراق الصباح المبلل
بقطر الندى . وإن سلوكهما مع السلام ، لمجيد ...!!
إن الناس يحاربون ، ليفرضوا مشيئتهم .
ولقد ألغى المسيح فرض المشيئة هذا حتى لو كانت
مشيئة عادلة وفاضلة .

قال لتلامذته وهو يوصيهم :

« وأية مدينة دخلتموها ، ولم يقبلوكم
فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا : حتى
الغبار الذي لصق بنا من مدينتكم ننفضه
عنا ! »

والناس يُحاربون من أجل الأرض يستعمرونها .
ويستغلونها .

ولكن استعمارهم هذا وغلبهم ذلك ، أن يدوروا .
« سيخونون للمسالمين الودعاء جميع المستقبين ،
المسيحيين »

« طوبى للودعاء ، لأنهم يرثون
الأرض » .

وهو - أعنى المسيح - يضع مبدأ هائلاً ، ورشيداً فى
العلاقات الإنسانية ، فيقول :

« من ليس علينا .. فهو معنا » .
وينفر من الحرب نفوراً شديداً ، ويحذر من عُقباها ،
فيقول :

« كل مملكة منقسمة على ذاتها
تخرب .. وبيت منقسم على بيت
يسقط » .

ويحب الحياة وديعة ، مزدهرة ، حافلة بالمباهج
والحب ، ويبث فى الأفئدة طمأنينة ، وأملاً ، ويخفف عنها
روعها ، ويتمنى للحياة عمراً طويلاً فى هذه الكلمات :
« إذا سمعتم بحروب وقلاقل ،
فلا تجزعوا .. لأنه لا بد أن يكون هذا
أولاً .. ولكن لا يكون المنتهى
سريعاً » !! ..

كم هى عذبة ، وطيبة ، ومتفائلة ، كلماته الحانيات
هذه .. « لا يكون المنتهى سريعاً » !!؟؟
وما ترك - ابن الإنسان - ثغرة ، تستطيع البغضاء ،

ويستطيع الشر أن ينفذا من خلالها إلى الحب وإلى السلام ، إلا أوصدها ، وتحامها .

ومن الحب ، والسلام ، والإيمان ، والطهر ، شاد حول الحياة سياجاً لا يرام .

فدعوته المضروب على خده الأيمن ، أن يعطى لضاربه خده الأيسر .

ودعوته من اغتصب رداؤه، أن يترك الإزار أيضاً .
وتحذيره المجلجل ، للذين تجيء منهم العثرات المفنية لهذا العالم .

وإعلانه ، أن « كل من غضب على أخيه باطلا ، يكون مُستوجب الحكم » .
وقوله :

« إن أعثرتك يدك فاقطعها » .



« ما جئت لأهلك ، بل لأخلص » .



« أريد رحمة .. لأذبيحة » .

كل هذا الهدى ، سياج منيع أقامه المسيح حول الحياة .

إنه لم ينتظر حتى يسىء الناس إلى الحياة بالقتل ..
فتلقاهم دون ذلك بأبعاد بعيدة .. تلقاهم عند الغضب -
مجرد الغضب - وصاح : هذا قتل .. !!

فهل يعلم هذا - جيداً - الذين يؤمنون بالمسيح في
زماننا ، إنه لخليق بهم أن يعلموا .. !
وخير لهم ألا يضلوا في زحمة البغضاء والطمع ، عن
كلماته المضيئة .. ومشينته السديدة .



ولمثل هذا الذى يعمل من أجله العاملون .. عمل إنسان
من أكثر أبناء الحياة برّاً بها ، وغيره عليها .
إنه « محمد » ...

لقد وقف يُبلِّغ عن ربه في ولاء الصادقين . ويقين
المرسلين أنه :

« من قتل نفساً بغير نفس ، أو فساد في الأرض ، فكأنما
قتل الناس جميعاً » .

انظروا ...

إن الحياة لا تتجزأ .

ليس هناك حياة لى .. وحياة لك ..

إن الحياة كائن واحد .. وأى مساس بأى جزء منها ،
مساس بها كلها ، وعدوان عليها جميعها .. !!

وكما اعتبر المسيح البغضاء كالقتل .. اعتبر محمد
القطيعة قتلاً ، فقال محذراً منها .

« من هَجَرَ أخاه سنة .. فهو كَسَفِكِ

دمه » .. !

وإنه كذلك ليعلم أن الناس يتحاربون ويتقاتلون من

أجل الأرض يستعمرونها . فيحتمى السلام من هذا السبب .. ويعلن أن من غير تخوم الأرض لينال شبراً ، ليس له فيه حق ، برئت منه ذمة الله ، ورسوله !! ويختصم إليه إثنان : غرس أحدهما نخلاً فى أرض الآخر .. فيقضى لصاحب الأرض بأرضه ، ويأمر صاحب النخل أن يخرج نخله منها .. فتضرب أصولها بالفؤوس فوراً . !

ويقول فى حديث زاجر عظيم :

« من اغتصب - شبراً - من أرض طوّقه إلى سبع أرضين » .

ويعطى هذا المعنى مزيداً من التوكيد ، لعلمه بما يجره الغصب والطمع من شقاق ، ونزاع ، وقتال . فيقول :

« من اغتصب مال أخيه بيمينه - أى بالقوة - حرم الله عليه الجنة - وأدخله النار . . . »

سأله سائل : يا رسول الله ، وإن كان شيئاً يسيراً ؟ قال :

« وإن كان عوداً من أراك !! »

ويُسأل سيدنا محمد - كما أسلفنا - عن أفضل الأعمال ، فيجيب :

« بذل السلام للعالم » .

ويربط الايمان بالحب لينشئ دعاً سلاماً للحياة وأمناً .
فيقول :

« والذي نفسى بيده ، لا تؤمنوا حتى
تحابوا .. ألا أدلكم على شيء إذا
فعلتموه تحاببتم ؟ .. أفشوا السلام
بينكم » ..

ويرفع السعى من اجل السلام إلى مكانة تفضل جميع
العبادات فيقول في حديث رافع .

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة ،
والصيام ؟ ؟

إصلاح ذات البين » !!

ويستبعد كل أسباب الشجار ، حتى النافه الضئيل
منها . فيقول .

« إذا مر احدكم فى مجلس ،
أو سوق ، وفى يده نبل فليأخذ بنصالها
لا يخذش بها أحداً » .. !

ويبلغ عن الله سبحانه قوله :

« ادفع بالتي هي أحسن السيئة » .

ويسأل سائل :

يارسول الله ، دلنى على عمل ، إذا عملته أكون قد فعلت
الخير جميعاً .

فيجيبه الرسول عليه الصلاة والسلام .
« لا تغضب » .. !

لقد تتبع الرسول كل أسباب البغضاء ، والحرب ، فى
سلوك الفرد ، وفى سلوك الجماعة ، فكافحها ونهى عنها .
ولعل سائلاً يسأل .

إذا كان محمد قد أنزل « السلام » من قلبه ، ومن
شريعته هذا المنزل الرفيع .. فكيف إذن حمل سيفه
وحارب .. وكيف إذن ، جعل الجنة تحت ظلال السيوف !!؟
سؤال عادل ، ومنطق أمين ..

والإجابة عنه ترجع بنا إلى نقطة هامة بدأنا بها حديثنا
عن السلام .. إذ قلنا إن الحروب تنشأ دائماً ، أو غالباً
من سبب واحد . هو جهل إرادة التاريخ ، ومقاومتها .
حيث يوجد هذا السبب ، يوجد لا محالة تحفز وحرب .
ذلك أن التاريخ ، الذى هو تطور إنسانى زاحف ، لا راداً
لسيره .

التاريخ هذا .. ماض بالحياة إلى غايات جديدة دائماً .
وكل مرحلة جديدة منه ، تفرض نفسها بقوة الميلاد ،
وبقوة الضرورة التاريخية التى أهابت بها لتجىء .
كما أن مرحلة قديمة مائلة للغروب ، تحاول التشبث
والبقاء .

وتصطنع كل مرحلة لنفسها مؤمنين من الناس وأنصاراً ..

وهنا يقف الجديد ، والقديم وجهاً لوجه ..
وحين تكون هذه المواجهة تكون الثورات ، وتكون الأحداث الكبيرة . وكلما أمعن أنصار المرحلة الآفة في جهل إرادة التاريخ ، وفي مقاومتهم لوليدته الجديد ، يكون الصدام أمراً محتوماً ..

وهذا ما حدث أيام الرسول عليه الصلاة والسلام . قامت حروب .. كان سببها الجهل بإرادة التاريخ ، ومقاومة هذه الإرادة .

ولم تأت المقاومة من جانب الرسول . بل من الجانب الآخر المعادى له . أما هو ، ودعوته . فقد كانا يمثلان الجديد القادم .. يمثلان إرادة التاريخ نفسه ..

وهذا واضح تماماً ، من ظروف الدنيا أيام بعثته ، ومن طبيعة دعوته التي جاء بها .. ولقد أشرنا لهذا في الفصل الثاني من فصول الكتاب .

أنا لا أحاول هنا الدفاع عن الرسول ، ولا أحاول تبرير نضاله .. فليس في حياته العظيمة كلها ما يدعو لمثل هذه المحاولة .

وإنما أحاول افتراض أن « السلام » نفسه تجسّد وصار إنساناً .

فماذا كان هذا الإنسان صانعاً تجاه الظروف المعادية التي ناوأته محمداً ..

إن الإجابة عن هذا السؤال يسيرة ، إذا نحن أدركنا
المفهوم الصحيح للسلام ..

فالسلم ليس هروباً من المسئولية .. وليس إزعاناً
لقوى الشر ، وليس مسائرة للخطأ .. وليس عجزاً عن
الاختيار ، والممارسة ..

وبعبارة واحدة : السلم قيمة تعبر عن نفسها
بالإيجاب ، لا بالسلب .

وأكثر الناس تقديراً للسلم ، وحاجة إليه ، رسول جاء
يدعو إلى عبادة الله ، وتركية النفس ..

إن السلم يمثل « الوطن » لدعوة من هذا الطراز ..
وقد لاذ محمد بهذا الوطن .. لا يريد من الناس سوى أن
يتركوه يبلغ كلمات ربه . ويمارس واجباً يملأ نفسه ،
ويدعو دعوة لاتقاوم ، إلى التبشير به ، والعمل في
سبيله .

وسارع ، فأعلن « تعايشاً سلمياً » عادلاً .

« لكم دينكم .. ولى دين » ... !!!

ولكن أعداء التاريخ ، لم يتركوه ، ولم يمهلوه ..
لم يذروا دنيئة إلا ارتكبوها معه ..
حَصَبُوهُ بالطوب ..

سلطوا عليه سفهاءهم ، فغمروه بروث البهائم ، وهو
ساجد يناجى ربه .. !!

حاصروا أهله ، وعشيرته حصاراً اقتصادياً خانقاً .. !!

مارسوا شر الجرائم ، وأرذلها ، مع الفقراء
والمستضعفين الذين اتبعوه .. !!
ثلاث عشرة سنة ، قضائها وسط مؤامرات لاتهدأ ،
واعتداءات لا ترعوى .. وهو فى صبره ، وفى حلمه ، وفى
السلام الحق الذى يريده ويحبه ، ويتمنى دوامه ..
يمعنون فى إيذائه ، وفى الكيد له .. فيمعن فى الصفح
عنهم ، وفى الدعاء لهم .
ولا تشغله جراحه الثاغية ، وآلامه اللاهبة عن الابتهاال
من أجلهم :

﴿ اللهم اغفر لقومى ، فإنهم
لا يعلمون ﴾ .. !!

لنتأمل جيداً كلمة - لا يعلمون - فإنها تمثل إدراك
الرسول لحقيقة المشكلة - جهل أعدائه بإرادة التاريخ ،
التي هى إرادة الله من قبل .
وماداموا - لا يعلمون - فإن واجب الرسول أن يعلمهم ..
وهنا يتضح السر العظيم الجليل فى صبر الرسول
عليهم ثلاثة عشر عاماً ..
ويستبين فهمه الرشيد لحقيقة السلام ، الذى هو
إيجاب ، لا سلب .. ومواجهة .. لا هروب .. !!
لقد كان محمد ، وهو يصبر على أذاهم ، ويعلمهم ،
يمارس سلاماً حقيقياً ، فهو لم يحلم عليهم ، ويصبر على
هولهم .. خوفاً أو استسلاماً .
بل ، لأنهم لا يعلمون .. وعليه أن يعلمهم ..

لا يبصرون .. وعليه أن يفتح عيونهم .

وهذا ، هو السلام ..

السلام الإيجابي ، الذي يواجه مسئولياته ، دون أن
يحمله العدوان على الهروب ، ولا على المقاومة غير
المشروعة !!

لكن هؤلاء - الذين لا يعلمون - يستنفدون - آخر
الأمر - كل حقهم في المعرفة ، وكل فرصتهم في السلام ..
ذلك أنهم يصرون إصراراً وبيلاً ، لا على التشبث
بباطلهم فحسب .. بل وعلى خنق الدعوة وإبادتها ..
وقرروا قتل محمد عليه صلاة الله وسلامه ..

وحتى بعد هذه الجريمة السافرة ، لم يشأ الرسول أن
يقاوم .. على الرغم من أن المقاومة آنئذ ، صارت حقاً
مشروعاً له ، بل وصارت تعبيراً آخر عن العدل ، وعن
السلام ..

لم يشأ أن يقاوم ، وهاجر إلى المدينة .
ومن المدينة سارت الأحداث في الطريق الذي جعل
المقاومة محتومة ولازمة ..

لم يقاتل الرسول ، حين قاتل ، من أجل توسع ،
أو امتلاك ، أو سيادة بل حصر جهاده « في سبيل الله » .
وعبارة « في سبيل الله » هذه .. تمثل الإطار الذي خاض
الرسول المعركة داخله .

ولا يكاد شيء يكشف عن ولاء الرسول للسلام ، مثلما
يكشفه سلوكه في الحرب .

فعلى كثرة الغزوات التى خاضها ، لم يكن عدد الضحايا فيها جميعاً ، سوى بضع عشرات من كلا الفريقين .. !

وحين علم يوماً أن - خالد بن الوليد - أسرف فى القتل فى بعض غزواته ، جلجل غاضباً ، ورفع يديه إلى السماء معتذراً إلى الله ، ضارعاً وهو يقول :

« اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ،
اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع
خالد » !!..

ولقد كان أمره لأصحابه بين يدي كل معركة :

« لا تقتلوا امرأة »

« ولا شيخاً » .

« ولا وليداً » .

« ولا تحرقوا زرعاً » .

« ولا نخيلاً » .

« ولا تنهبوا » .

« ولا تمثلوا بأحد » .

« واجتنبوا الوجوه ، لاتضربوها » . !



وكما جاء عيسى ليكمل الشريعة .. جاء محمد ليستأنف
المسيرة .

ولقد كان « الصليب الكبير » الذى أعدّه المجرمون
للمسيح .. يتراءى لرسول دوماً ..
وما كان من الخير أن يُمكن المجرمون من انتصار
جديد .. يتلمّظون فيه بدم رسول شهيد .. !
ما كان من الخير أن تخلق دعوات الهدى فى المهد ، كل
مرة .

وإذا كان المسيح ، قد حمل « صليبه » من أجل
السلام . أقول « حَمَل » لا أقول « صُلِب » فإنه قد شُبّه
لهم ، فخاب فآلهم ::

فإن محمداً . قد حمل « سيفه » من أجل السلام .
كلاهما . سيف .

الصليب الذى حمله المسيح ، سيف ، أراد اليهود أن
يقضوا به على « ابن الانسان » ورائد الحق ..
وسيف محمد . سيف ، أراد محمد أن يقضى به على
أعداء الإنسان . وأعداء الحق

وغاية الرسولين واحدة : السلام .

فى دور المسيح ، كان السيف مُسلطاً على الحق .
وفى دور محمد ، كان السيف مُسلطاً على الباطل .
وفى سلوك المسيح . عبر السلام عن نفسه بالرحمة ..
وفى سلوك محمد ، عبر السلام عن نفسه بالعدل .
وهكذا استكمل جناحيه اللذين يحلق بهما عالياً ..
والرسول لم يحترف القتال ، ولم يكن له . هواية ..

وإنه ليعلم أصحابه ، ويرسم لهم الحدود المشروعة
للنزول :

« إيها الناس .. »

« لا تتمنوا لقاء العدو .. »

واسألوا الله العافية ..

« وإذا لقيتموهم ، فاصبروا » .

أرأيتم ...؟

إنه إنسان ودود ، مسالم .. لا يريد لقاء العدو ،
ولا يتمناه .

وإنه ليسأل الله في ضراعة ، أن يباعد بينه ، وبين هذا
اللقاء .

ولكن ، إذا اضطره إليه واجب الدفاع عن الحق ،
وتأديب الباطل فسينهض من فوره ، ويصبر على مشقات
النضال .. !!

ولقد عاش المسيح - في دعوته - ثلاثة أعوام
وعاش محمد - في دعوته - ثلاثة وعشرين عاما .
وعلى الرغم من قصر الزمن الذي عاشه المسيح داعياً ،
وعلى الرغم من تنسبه بالتسامح المطلق .. فقد كانت
مكايد المتربصين به تشد زناد غيظه ، فيزجرهم بكلمات
شِدَاد .. ويكاد - أحياناً - يجنح إلى القصاص ، ويشيد
بالقوة العادلة ..

فهو - مثلاً - يقول :

« إذا شتمك أخوك ، فوبخه .. فإن
تاب فاغفر له » .

ويقول :

« حينما يحفظ القوي داره ، متسلحاً ،
تكون أمواله في أمان » .

وكثيراً ما نراه ، وهو يخاطب - اولاد الأفاعي - يحتدم
غيظاً .. وكأنه يرغب في ان يضربهم ، ويدحرجهم على
الأرض ، كما فعل بموائد الصيارفة ، وأقفاص الباعة حين
دخل الهيكل .. ولكن إدراكه العميق لدوره ، وإيمانه بأنه
جاء الدنيا ليلقى عليها درساً عظيماً في التسامح والمحبة
جعلاه يكظم غيظه ، ويشرب كأسه في سلام . " .
قال لمن أراد أن يدافع عنه بسيفه ، حين هاجمه أعداؤه
ليلاً ، لياخذوه إلى رؤساء الكهنة ، كي يحاكموه

« رُدّ سيفك إلى مكانه .. أتظن أنني
لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم
لي أكثر من اثني عشر جيشاً من
الملائكة .. ؟؟

« فكيف تكمل الكتب .. ؟ إنه
هكذا ينبغي أن يكون » .. !!
أجل .. هكذا ينبغي أن يكون ..

مادام قد جاء ليعلم الناس ، كيف يمكن
للحب أن يتفوق على الكراهية ،
وللسلام أن ينتصر على المؤامرة .



وبعد .. فهكذا كان ولاء محمد
والمسيح للحياة ..

وهكذا كان موقفهما مع السلام .
لقد حملا تبعات الوجود .. وأدباً
أمانة الحياة على نسق جدّ عظيم .
وعلى الطريق الذى سارا عليه ،
لا تزال كلماتهما ترسل ضياءً باهراً ،
ولا تزال الدنيا تجد سكينه وأمناً ، فى
كلمات المسيح .

« سلاماً ، أترك لكم » ..

وفى كلمات محمد :

« كونوا عباد الله إخواناً » ..



■ الفصل السادس ■

وَالْآنَ . . . بَارَايَاسُ . .
أَمْ الْمَسِيحُ . . ؟

عندما قاد اليهود فى أورشليم روح الله
عيسى إلى « بيلاطس » الحاكم الرومانى .
مطالبين بصلبه .. أطل « بيلاطس »
عليهم ، ومضى يحاورهم فى أمر المسيح ،
إذ كان يعلم أنهم يريدون إسلامه للموت
حَسَدًا من عند أنفسهم ..

قال لهم : « ماذا فعل يسوع ، الذى يُدعى المسيح » ؟..؟

وأجاب اليهود ، ورؤساء الكهنة : « إنه يفسد الأمة » !!..

وقال بيلاطس : « إنى لا أجد علة فى هذا الإنسان » ..
ونبحت كلاب أورشليم نافذة بنباحها من الزاوية
الحادة ، التى تخرج « بيلاطس » وتكرهه على الازعان
لنباحها .

« قالوا : « إنه يهيج الشعب .. ويمنع أن تُعطى جزية
لقيصر .. وإذا لم تصلبه . فلن تكون محباً لقيصر » !!..
وقال بيلاطس : « إننا فى العيد وسنطلق كما هى العادة
واحداً من المحكوم عليهم .. فليكن هو المسيح » ..
وتهاشش رؤساء الكهنة ، وتراخض يهود أورشليم
كالخراف الضالة .. وصاحوا جميعاً : « لا .. لا .. أطلق
سراح « باراباس » ، أما المسيح فأصلبه » !

ويلح « بيلاطس » كى ينزلوا عند رأيه ، فيقول لهم :
« لقد فحصت هذا الإنسان قدامكم ، ولم أجد فيه علة ،
ولا هيروودس أيضاً ، وجد فيه شيئاً مما تشتكون منه » ..
ولكنهم يُلَوُونَ ألسنتهم كأذناب الحيات ، ويصيحون :

« خذ هذا .. وأطلق لنا باراباس » ..

« باراباس .. باراباس .. أما

المسيح ، فاصلبه » ..

يقول إنجيل يوحنا

« . وكان - بارباس - لصا .. !! »

ويقول إنجيل لوقا :

« إنه كان مطروحاً فى السجن لأجل

فتنة ، وقتل » .

ويقول إنجيل مرقس ، مثل هذا أيضاً .



إن نفس الخيار ، يُقدّم اليوم وَيُعْلَن

وإنه لمن حسن الحظ أن الذين يختارون انيوم . ليسوا
يهود اورشليم ولكنه العالم كافة .. والغرب المسيحى
بخاصّة !!

لقد رفض أخبار اليهود فى ذلك اليوم البعيد . أن
يختاروا المسيح . لأنه جماع فضائل لا يطبقونها .
ومشرق عصر عظيم لا يسمح لنقائصهم بالازدهار ..
وحتى حين خجل ممثل روما العاتية الباغية . أن
يشارك فى المؤامرة الدنسة . وتوسل إليهم كى يدعوا
للمسيح حريته .. رفضوا . وصاحوا به .. بل باراباس ..
الحرية لباراباس .. والصلب للمسيح .. !!

ترى ، ماذا يكون جواب البشرية اليوم ، حين يطلب
إليها أن تختار .. ؟

إن محمداً رسول الله ، ليهديها إلى الجواب الحق ..
ولقد سبق إلى الاختيار السديد ..

لقد اختار المسيح . أى اختار فضائله التي جاء
.. هو - لبيعها من جديد
فمنذ ألف وأربعمائة عام إلا قليلاً . وهوقائم هناك . في
شبه جزيرة العرب ، يبلغ رسالات ربه ، أعلن أن المسيح
سيعود .. وسيملا الأرض نوراً ، وسلاماً . وعدلاً . !! هذا
هو ، يقول :

« والذي نفسى بيده لِيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ
فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ مُقْسِطًا .. !! »

ترى . ماذا نفهم من عودة المسيح ؟؟..
إن الجواب يسير ، إذا عرفنا ماذا كان المسيح
أكان ذلك الجسد النازل . والشعر انمرسل ..
والثلاثين عاما التي سجلتها له على الأرض شهادتا الميلاد
والوفاة .. ؟!

كلا .. إن المسيح ، هو دعوته .. هو المتل الأعلى الذي
تركه وأعطاه . هو الحب الذي لايعرف الكراهية .. هو
السلام الذي لايعرف الفلق . هو الخلاص الذي لايعرف
الهلكة ..

وعندما تتحقق هذه كلها على الأرض ، تتحقق فى نفس
الوقت ، عودة المسيح ..
أجل : إن المسيح الذى سيعود . والذي تنبأ له
الرسول بالرجعى ، هو هذا ..
هو السلام ، والحب ، والحق . والخير . والجمال .

وننزل ، مع « الرسول الأمين » ، نصيح
المسيح . لا باراباس
الحق . لا الباطل .
الحب .. لا الكراهية
السلام .. لا الحرب
الحياة .. لا القناء .

وإننا إذ نرفع في آيماننا هذا الاختيار . ليهدينا إليه
وحتى عظيم بحتمينه . وأفضليته . وقيمته
ويهدينا إليه بصر ثاقب باحتياجات عصرنا الذي يمرّفه
القلق والحواف ..

وبصر ثاقب بالمصير المروع الذي سيحيق بالعالم إذا
كتب النصر مرة أخرى للصرخة السافلة التي نقول .
باراباس .. لا المسيح !!!

إننا نعرف جيداً ، ونذكر تماماً .. ان « مائة وخمسين
مليوناً . من البشر ، ذهبوا ضحية الحربين العالميتين
السالفتين . »

« مائة وخمسون مليوناً .. سابين قتيل ، ومشود .
وجريح . ومفقود !!

قتلى ميادين الحرب .. وقتلى معسكرات الإبادة ..
وقتلى الغارات الجوية .. وقتلى الأوبئة التي تذرّوها رياح
الحرب المنتنة .. »

« مائة وخمسون مليوناً .. كانوا حصاد الهتسيم
والحصاد الآليم ، لحروب خلقتها . واضرمتها . الروح

التي تؤثر « باراباس » .. وترفض « المسيح » .. !!
الروح المكفهر القاتم ، الذي ترى في الحرب صفقة .
وفي القوة امتيازاً .. وفي السرقة سيادة ، ونبلاً .. !!
الروح القائظ الملتاث ، الذي لا يحب الحب .
ولا السلام . ولا الحق ..
تُرى ، هل يسيطر هذا الروح ، وينشر على الحياة
الجميلة ضبابه وظلامه .. ؟؟
تُرى هل يقتحم الأفق الوديع ، المشرق ، نباح الكلاب
من جديد :

باراباس .. باراباس ..
أما المسيح ، فيصلب ..
أما السلام ، فيصلب .
أما المحبة ، فتصلب ..
هل يمكن أن يحدث ذلك مرة أخرى .. ؟؟
إن التفاؤل الصادق الذي ملأ به محمد رسول الله
أفئدتنا ، ليجعلنا نجيب في يقين راسخ : لا ..
لن يحدث ذلك مرة أخرى ..
لقد أقسم « رسول الله محمد » أن المسيح قادم ، ليملاً
الأرض قسطاً وعدلاً .
ونحن نؤمن بصدقه ..
ونؤمن بأن عودة المسيح هذه .. تعنى انتصار القيم
التي كان المسيح يُمثلها ، والتي قهر بها الرسول عالم
الوثنية والظلام .

تعنى انتصار الإنسان ، وانتصار الحياة ..
تعنى سيادة الحب ، وسيادة السلام ..



عندما هاجم غوغاء اليهود بستان الزيتون ليقبضوا
على المسيح ، تقدم من الحرس ، وسألهم :
« من تطلبون ؟؟ »

أجابوه : « نريد الناصري » ..
فقال :

« أنا هو .. ولست أسألكم إلا شيئاً
واحداً » .

ثم أشار بيد أمينة حانية صوب تلاميذه الذين كانوا
معه فى البستان ، واستأنف حديثه مع الحرس قائلاً :
« أن تدعوا هؤلاء ، يذهبون
لبيوتهم ، حتى أستطيع أن أقول لأبى
حين ألقاه :
« إن الذين أعطيتنى ، لم أهلك منهم
أحداً » !! ..



انظروا ...

فى هذه المباغطة الشريرة المذهلة ، لم يذكر نفسه ،
ولا حياته .. وإنما ذكر مسئوليته الكبرى تجاه
الآخرين !!

لم يشترط لنفسه نجاته ، ولا سلامة .. وإنما اشترطها
للآخرين ..

وذلك كى يستطيع أن يقول لربه حين يلقاه :

« إن الذين أعطيتنى ، لم أهلك منهم
أحداً » .. !!

هذا هو روح العصر الذى يبشرنا محمد بمجيئه ..
والذى نرقبه صابرين .. واثقين .. عاملين ..
عصر يتفوق فيه الإيثار ، والحب ، ويحمل الناس فيه
مسئولية وعيهم ، وأمنهم ، ورخائهم ..



والواجب الذى سنذكره دوماً ، كلما ذكرنا المسيح ،
ومحمداً ..
هو .

- أن نجعل لوجودنا الإنساني حقيقة ، ومعنى ..
- وأن نخصّ الإنسان والحياة بالفصيب الأوفى من تبعات رشدنا ..
- وأن يكون سبيلنا لهذا ، الحق القوي .. والمحبة اليقظي ..



فهرس

صفحة

٧	● الإهداء
٩	● مقدمة
١٢	● مراجع
١٣	● الفصل الأول (سقراط يقرع الأجراس)
٢٩	● الفصل الثاني (الهداية ترسل سفائنها)
٤٥	● الفصل الثالث (معاً على طريق الرب)
٨١	● الفصل الرابع (معاً من أجل الإنسان)
١٧٧	● الفصل الخامس (معاً من أجل الحياة)
	● الفصل السادس : والآن .. باراياس .. أم
٢٢٩	المسيح ؟)

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٢٩٨ / ١٩٨٩

الترقيم الدولي ٢ - ٣٤٦ - ١٢٤ - ٩٧٧

ISBN

03
Biblioteca Mexicana
BIBLIOTECA NACIONAL DE MEXICO
BIBLIOTECA NACIONAL DE MEXICO



0324854

صندوق المتاحف بالبحر الأحمر

To: www.al-mostafa.com